

محمد احمد جاد المولى باك

Jād al-Mawlā , M. Ahmad

DS

Inṣāf Uthmān

238

U 86

J3

1944

انصاف عثمان



ملزوم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

جامعة بغداد
مكتبة
الطباطبائي

297/92
0559

٢١٩، ٩
عثمان . ز



مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ

www.lisanarb.com

23496

لِسْنَةِ اللَّهِ الْجَزَّالِ الْجَمِيرِ

أما بعد

فإن الأمة الإسلامية تنفلت الآف من عُقلها ، يزحف بعضها
ويخبط بعضها شطر المثل الأعلى للأمم الحية الراقية ذات العزة
والسلطان بعد ما طال واستطال سباتها ، حتى لقد زعم بعض أعدائها
أنها لن تفيق .

وهي في يقظتها ونهضتها تتأسى بسير السادة الأبطال من أسلافها ،
ورواذها إلى مثلها الأعلى يحملون أمامها السامي المجيد من تاريخها ،
يوقظون به حميتها ، ويبيغثون نخوتها ، ويحددون بالصوى والأعلام
وجهتها وغايتها ، لتبين الأمة جدارتها بالزعامة والصدارة وكفايتها
وإذا كان هدف الدين أرخوا للسيرة وغيرها فيما مضى الدراسة
والتسجيل وإحقاق الحق فإن هدف الدين يؤرخون الآن البحث
والتحليل والنقد ثم إيقاظ النقوس الهمامدة ، وبعث الهم
الخامدة . وأى سمو وكمال وبطولة يدانى سمو الرسول عليه الصلة
والسلام وكاله وبطولته ؟

ثم أية عظمة نفسية وعملية تلك التي تتميز في حياة خلفائه وصحابته ؟

لهذا كان من فضل هذا العصر ومن الخير له أيضاً أن تزاحت
الأقلام في تحلية هذا التاريخ ، فألفنا منذ خمس عشرة سنة كتاب

« محمد صلى الله عليه وسلم المثل **الكامل** » وتتابعت الكتب في المصطفى وخلفائه وغيرهم من مشهورى الإسلام . وإنها يقظة لها ما لها ، بارك الله فيها وعَضَدَ آها .

وكانت وزارة المعارف قد فكرت منذ سنوات في وضع كتاب جامع لأبطال الإسلام وخصصتنا بعمان بن عفان رضي الله عنه ، فدرستناه ثم نامت الفكرة فرأينا أن نبسط دراستنا في كتاب مستقل هو هذا الكتاب .

درستنا تاريخ عثمان وعصره والثورة عليه دراسة الحذر من الأخبار المنسوبة ، اليقظ لمواطن العبرة ، المرجع كل حدث إلى بواعته الأصيلة وإن رأنت عليها الشبهات .

ولم نكتف بما قال المؤرخون ، بل مددنا بصرنا إلى أبعد من ذلك ، خللنا شخصيته ويدينا ما لها من صلة بالثورة عليه ، ودرستنا حال المسلمين ، وقد نعموا بالراحة والثراء وانساحوا في الأصقاع يخالفون الأعاجم ويصهرون إليهم ويتخلقون بعاداتهم ، وحال قريش وما انتابها من تفرق وتنافز على الرياسة ، ويدينا صلة ذلك بالتجني على الخليفة ، وجلونا الفتنة التي أرثها في الأمصار أعداء عثمان وأعداء الإسلام ، ونخللنا ذلك كله وصفيناه ، واستخلصنا منه الأسباب الصريرة للفتنة .

ولم نغفل أن نعرض لما أخذ على عثمان ، ولا أن نتصف له حيث يستحق الإنصاف .

ومن حق عمان أن تخصص لدراسته ودراسة عصره عشرات الكتب ، فإنه الخليفة المهمضوم الحق ، المظلوم في الحكم عليه ، على ما له من سابقة وفضل وإصلاحات ، وعصره عصر انتقال واضطراب وثورات سياسية واجتماعية .

ونحن وإن بالغنا في الإحاطة وتوقي الزلل عرضة للتقصير ، ولكننا اجتهدنا رأينا ، فنرجو أن تكون قد وفقنا لإبراز صورة واضحة لهذه الحقبة من تاريخ المسلمين ففيها عظات وعبر . والله المستعان .



تَمْصِيدٌ

إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ قَدْ وَجَهَ اللَّهُ تَعَالَى
الْخَطَابَ بِقَوْلِهِ : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرَجْتُ لِلنَّاسِ تَأْمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » . وَصَاحَبَتْهُمُ الَّذِينَ كَانُوا أَعْدَاءَ فَأَفْلَفُ
بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَأَصْبَحُوا بِنِعْمَتِهِ إِخْرَاجَهُ ، وَهُمُ الَّذِينَ قَامُوا بِعَبْدِ الْأَمْرِ
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهِيِّ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يَخَافُونَ فِي ذَلِكَ قُوَّيَاً وَلَا يَهَابُونَ سُلْطَانَاً ،
قَدْ اسْتَوَى إِلَيْهِمْ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَمَلَكَ حُبُّ الْحَقِّ أَعْنَاهُ أَفْئِدَتْهُمْ فَاتَّخَذُوهُ
نِبْرَاسًا لَّهُمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ .

وَقَدْ أَحْلَمُهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَحْلًا رَفِيعًا وَأَنْزَلَهُمْ مِنْزَلَةً
سَامِيَّةً تَنْقَطِعُ دُونَهَا نِيَاطُ الْآمَالِ ؛ إِذَا قَالَ فِيهِمْ : « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ
لَوْ أَنْفَقْتُ أَحَدَكُمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبَ مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدَهُمْ وَلَا نَصِيفَهُ » . وَلَيْسَ
يَتَسْنَى لِإِنْسَانٍ مِمَّا يَبْلُغُ مِنِ الْفَضْلِ وَالْكَالِ وَالتَّقْوَى أَنْ يَنْالَ مِثْلَ تِلْكَ
الدَّرْجَةِ ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ اخْتَصُوا دُونَ سُوَامِيمَ بِرَوْيَةِ النَّبِيِّ حَيَاً ، وَهُمُ الَّذِينَ
جَاهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعَهُ حَقَّ جَهَادِهِ لِإِعْلَاءِ كُلِّتِهِ ، وَبَذَلُوا فِي سَبِيلِ
ذَلِكَ أَمْوَالَهُمْ وَدَمَائِهِمْ طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ لَا يَتَنَعَّجُونَ بِذَلِكَ غَيْرِ رَضَا اللَّهِ سَبِيلَهُ
وَتَعَالَى وَنَشَرَ دِينَهُ ، وَمِنْهُمُ الْمَهَاجِرُونَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
وَتَرَكُوا ذُوِّهِمْ بَيْنَ أَيْدِيِّ الْمُشَرِّكِينَ يَذْيَقُونَهُمُ الْأَوَانَ الْعَذَابِ احْتِفَاظًا بِدِينِهِمْ
وَوَفَاءً لِعَقِيدَتِهِمْ ، وَمِنْهُمُ الْأَنْصَارُ الَّذِينَ آتَوْا رَسُولَ اللَّهِ وَأَصْحَابَهُ وَسُوَّا
يَدَهُمْ وَبَيْنَ أَنفُسِهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَفِي كُلِّ مَا مَلَكَتْ أَيْدِيهِمْ فِي حدودِ الدِّينِ ،

وَاتَّخِذُوهُمْ إِخْوَانًا لَهُمْ ، يَرَوْنَ لَهُمْ مَا يَرَوْنَ لِأَنفُسِهِمْ .
وَتَلِكَ غَايَةٌ لَا تُطَيِّبُ لَهَا نَفْسٌ مِنْهَا يَبْلُغُ صَاحِبَهَا مِنَ الْكَرَمِ وَالْوَفَاءِ
وَالتَّضْحِيَةِ ، وَلَكِنَّهَا الْقُلُوبُ الطَّاهِرَةُ تَفِيضُ بِالْخَيْرِ فِي كُلِّ مُوْطَنٍ ،
وَهُمُ الَّذِينَ حَمَلُوا إِلَيْنَا كِتَابَ اللَّهِ فَكَانُوا أَمْنَاءَ صَادِقِينَ فِيمَا نَقْلُوهُ ، فَلَمْ يَتَوَجَّهْ
إِلَيْهِمْ أَحَدٌ بِرِيَّةً ؛ وَتَلِكَ يَدِ يَحْبُّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَقَاتِلَهَا بِعَظِيمِ الشَّكْرَانِ ،
بِخَزَامَةِ اللَّهِ عَنَا خَيْرَ الْجَزَاءِ ؛ كَمَا حَمَلُوا إِلَيْنَا سَنَةَ رَسُولِهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ غَيْرِ
مَنْقُوْصَةٍ وَلَا مَدْخُولَةٍ . وَهُمُ الَّذِينَ فَسَرُوا النَّاسَ مَا خَفِيَ عَلَيْنَا مِنْ آيَيِ الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ وَأَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ ، فَتَعَلَّمَنَا
مِنْهُمُ التَّأْوِيلُ وَطُرُقُ الْإِسْتِنبَاطِ وَالْقِيَامِ ، وَهُمْ فِي هَذَا كَلَهُ لَمْ يَحَاوِزُ
وَاحِدٌ مِنْهُمُ الْأَمَانَةَ وَالصَّدَقَ ؛ إِذَا كَانَ لَهُمْ — رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ — مِنْ
ذَلِكَ أَوْفَرُ نَصِيبٍ ، وَمِنْهُمْ تَعَلَّمَنَا الْأَمَانَةَ فِي الدِّينِ وَالصَّدَقَ فِي الْيَقِينِ .
وَإِنَّهُمْ بِمَا اتَّصَفُوا بِهِ مِنَ الْكَلَالَاتِ وَمَا وَصَلَوْا إِلَيْهِ مِنَ الْمَنْزَلَةِ الرَّفِيعَةِ
يَعْدُونَ مَظَهِرًا مِنْ مَظَاهِرِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَكَمَالِ ابْدَاعِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ .
وَإِنَّهُمْ بِمَا أَثْرَعْنَاهُمْ مِنْ أَفْعَالٍ مُحِيَّدَةٌ خَلِدُهَا لَهُمُ التَّارِيَخُ قَدْ أَرْشَدُونَا
إِلَى أَنَّ الدُّنْيَا دَارِ جَدٍ وَعَمَلٍ وَلَيْسَتْ دَارَهُ وَعِبَتْ ، وَأَنَّ الْفَائزَ فِي الْحَيَاةِ
مِنْ عَمَلِ الدُّنْيَا وَآخِرَتِهِ . فَإِذَا كَانَ مُسْلِمٌ أَنْ يَفْخُرْ بِفَدِيرِهِ أَنْ يَفْخُرْ
بِأَوْلَئِكَ الْقَوْمَ ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْرِكَ حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَفَدِيرِهِ أَنْ
يَقْتَنِي آثَارَهُ وَيَهْتَدِي بِهِدَاهُمْ . وَلَيْسَ يَبْلُغُ هَذِهِ الْمَنْزَلَةِ إِلَّا مِنْ أَشْرَبَ
فِي قَلْبِهِ جَهَنَّمَ ، فَخَبِّهُمْ بَاعْثَتْ لَنَا عَلَى اقْتِفَاءِ أَثْرَهُمْ .
لَهُذَا كَانَ جَهَنَّمُ مَطْلُوبًا شَرْعًا لِأَنَّهُ أَقْوَى الْأَسْبَابِ إِلَى سُلُوكِ طَرِيقِهِمْ

والعمل بستهم . وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم : « فن أحظم
فيجي أحظم » فجعل محبتهم من محبته .
وأفضالهم العشرة المبشرون بالجنة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى
وطحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعید بن زید
وأبو عبيدة بن الجراح .

ولقد أجمع أهل السنة على أنه يحب على كل مسلم تزكية أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم وإثبات العدالة لهم والثناء عليهم واجتناب
الطعن في سيرتهم ، وقد أثني عليهم المولى جل شأنه ووفاهم حقهم من
التكريم في قوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ، وقوله تعالى :
« وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس » . والآياتان
وإن كانتا في عموم الأمة ، خصوصيتان في الصحابة ؛ لأنهم المخاطبون
بهما وفيهما شهد الله لهم بالعدل ووصفهم به ، وهو قول لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه .

وفي قوله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار
والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه » وقوله تعالى :
« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يتغدون فضلاً
من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين
تبوءوا الدار والإيان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في
صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن
يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . وقوله تعالى : « محمد رسول الله

والذين معه أشداء على الكفار رحمة يبنهم تراهم ركعاً سجداً يتغون
فضلاً من الله ورضاوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم
في التوراة، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فازره فاستغاظ
فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيبط بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا
وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيماً .

وغير هذا من الآيات كثير. ولو ذهبت تتقصى آى القرآن الكريم
لوجدت الكثير من مثل هذه الآيات يشهد لهم بالسبق وسمو المكانة
والمرتبة الرفيعة في الدنيا والآخرة .

ومن أجل هذا الذي قدمنا من الآيات وما ورد من الأحاديث في
 شأنهم قال الأئمة بـ كـ فـ الرـ وـ اـ فـ : لأنـ هـمـ يـ غـضـ بـ الـ صـ حـ اـ بـةـ . قال الإمام
 أبو زرعة الرازي وهو من أجلاء شيوخ المسلمين وعلمائهم : (إذا رأيت
 الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم فاعلم أنه
 زنديق ؛ وذلك أن رسول الله حق والقرآن حق وما جاء به حق، وإنما
 أدى إلينا ذلك كله الصحابة ، فمن جرهم فإنما أراد إبطال الكتاب
 والسنة ، فيكون الجرح به أصيق والحكم عليه بالزندة والصلالة
 والكذب والفساد هو الأقوم) .

وقال ابن حزم : (الصحابة كـ هـمـ مـ نـ أـ هـ لـ الجـ نـ قـ طـ مـ) . قال تعالى :
 « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة
 من الذين أنفقوا من بعد وقاتلو ، وكلا وعد الله الحسنى » ، فقد وعد الله
 الحسنى وهي الجنة ، وأحلهم دار المقامات من فضله فكانوا أحق بها وأهلها .

الخلاف على عثمان بن عفان (رضي الله عنه)

انتخابه

درج كثير من أهل العلم والورع من المسلمين منذ القدم أن ينهوا الناس عن الخوض فيما شجر بين الصحابة حتى وصل الأمر إلى حد المغالاة والمحجر على العقول . ولكن العقل مهما يطل الزمن لا بد أن ينشط من عقاله ويقر الأمور في نصابها اليوف كل ذى حق حقه وإن كانت أحكامه في بعض الأحيان مرة المذاق . وكيف لا يكون للعقل سلطانه وقد مكّن له في القرآن ، وجعل الإيمان الصحيح ما كان عن اقتناع صادق ، والعقيدة السليمة التي يؤمّن عليها من الزيف ما جاءت عن رأى حر وتعين المهدى من الضلال : فالإسلام دين الحرية ، دين السياسة الرشيدة التي تجئ بعد التحيص والنظر في شؤون الدين والدنيا ، فالدين لم يحجر على أحد أن يتناول بالنظر والحجاج ما كان بين الصحابة من خلاف بالمعنى المعروف في تقاش العقلاء ومصاولة أهل الأدب والمنطق الذين تنزهت أسلتهم عن السفاهة والبذاء وفهموا روح الإسلام حق الفهم ، فهم يعرفون للمجاهدين في تأسيس الاجتماع الإسلامي أقدارهم ، ويقدرون تصحياتهم في أموالهم وأنفسهم ثم يسمحون لأنفسهم أن يتعرفوا البواعت الاجتماعية والسياسية التي نشأت عنها الأحداث ، وما كان لهذه الأحداث من خطر في نظام الحياة الإسلامية أثر في العصور المتتابعة .

والحق أن هؤلاء العلماء كانوا جد حريصين على الوحدة الإسلامية؛ إذ رأوا المغالاة في تمجيد بعض الصحابة والزراية على بعض آخر مما مزق المسلمين شيئاً وأحزاباً حتى انتهى الخلاف إلى قلة الإنفاق، وانصرف الناس عن الغرض الأسنى من رسالة الإسلام إلى الخلاف على أمور تناقلها التاريخ وليس من أصل الإسلام في شيء؛ ورأوا أن يُوفروا على الناس المناقشات العقيمة وضياع الوقت في تأريث عوامل التفريق والأحكام الجائرة على هؤلاء بالهداية، وأولئك بالضلالة، وأفتووا بإغلاق باب الشر وتوجيه الناس إلى ما ينفعهم في الدين والدنيا، كما أفتوا بإغلاق باب الاجتهد في الدين لما رأوا بعض الناس يستبيحون لأنفسهم الفتيا عن علم وعن جهل؛ وكل ذلك كما يبنا للحرص على سلامة الروح الإسلامية من عوامل الكيد والانقسام. فاما ونحن بسبيل التحقيق التاريخي ومحاولة التوصل إلى رأى موفق، فما علينا من بأس في بحث العوامل التي كانت وليدة البيئة والسياسات المتماوجة وانتهت إلى الثورة على الخليفة عثمان بن عفان ثم إلى ت سور البيت عليه وقتله وهو متخصص بكتاب الله الكريم.

جبل الناس أفراداً وجماعات على تنازع البقاء وتطورت الأمم تبعاً للنزاع القائم بين البشر. وقد دلنا التاريخ ولا يزال يدلنا على أن العقدة التي لم تحل بعد عملياً وإن حللت نظرياً هي سلام العالم والأمم لاختلاف وجوه المصالح وتبادر العقول. ترى ذلك بين الأفراد في الأمة الواحدة؛ لذلك تعددت الأحزاب وتفاقمت المشكلات، وتراء واضحًا بين الدول،

كل دولة تهم الأخرى وتعمل على توسيع نفوذها . وهذا الصراع العقلي يشمل البشر أخيراً وأشراراً ولكل وجهة هو مولتها . ولذلك كانت أعباء الملوك وولاة الأمور في كل أمة أفتح الأعباء ، وقسطهم في العناية يوازي قسط أفراد الأمة مجتمعة ؛ فليس بدعاً أن نرى العرب يختلفون على ما جدّ من أمور الإدارة والحكم والسياسة بعد أن جمع الدين كلّتهم ووحد غايتها فنشروا الإسلام وفتحوا البلاد والأمصار . والعرب من أذكي الأمم وأشدّها إحساساً وأنفة واعتزازاً بالنفس ، وأكثراها إسراها إلى نقد ما لا يرضيها مما له ارتباط بصالحها .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلّم العنائم ففضل أناساً من أهل مكة على الأنصار من أهل المدينة الذين آتوا المسلمين ونصروا الإسلام فغضب الأنصار بجمعهم النبي وقال لهم : (أوجدتُم يا معاشر الأنصار في لعنة من الدنيا تألفت بها قوماً ليس لهم ووكالكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معاشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجموا رسول الله إلى رحابكم؟ فوالذي نفس محمد يده لو لا الهجرة لكنت امراً من الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار) . هكذا كان ي العمل الرسول على إرضاء النفوس الشائرة وإطفاء ثائرة غضبها ، وليس بعد هذه الترضية ما هو أبعـع منها وأجل .

فاما توفي الرسول لم يكن قد نصب للمسامين خليفة من بنى هاشم أو من قريش أو من العرب عامة ، ولم يقل قوله صريحاً فيمن يولي ، وترك لهم اختيار من يرضون ، وكان في ذلك حكمة جليلة حتى لا يكون

الممايز بين الطبقات أصلًا من أصول السياسة الإسلامية، ولتكن الحرية واسعة المدى للناس في تعرف مصالح الدنيا التي تجده باختلاف العصور. ولما تمت البيعة لأبي بكر الصديق رضي عنها قوم وتبعد بها آخرون، غير أن شخصية أبي بكر وجلال قدره وحسن بلائه في تأييد الإسلام أُسْكنت النفوس الفاضحة فسار بالأمر قُدُّمًا حتى عهد به إلى عمر بن الخطاب حرصاً على سلامة الأمة من التفرق. لم يكن عمر بن الخطاب من أقرباء أبي بكر، فذاك من عدى وأبو بكر من تيم؛ فليس هناك مطعن في غاية شخصية يرمى إليها أبو بكر، وإنما اختيار المسلمين أقوى رجل يحسن الاضطلاع بالأمر، وتحري بهذا الاختيار مصلحة الأمة ما استطاع، لم يرفع أحد رأسه ولم يشجع رأى نزاع على عمر فتحقق ذلك فراسة أبي بكر. ولا ريب أن شخصية عمر بن الخطاب فذة في التاريخ الإسلامي وقد طالت خلافته فظهرت عبقيته في سياسة المسلمين وفي حروبهم وفي حسن التصرف في الأموال التي تدفقت كالسيل المنهمر عقب فتح دولتين عظيمتين : فارس والروم. وأعظم ما ممكن لعمر أنه أفنى نفسه في سبيل واجبه ، وفهم نفسية العرب حق الفهم ، وكان يفصل في الأمور بحزم يحدث الرهبة والحدر في صغار الناس وكبارهم. عرف في العرب قوة النقد فكان إذا نهى الناس عن أمر من الأمور جمع أهله فقال : إني نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفـت عليه العقوبة .

وُرِفَ في بعض زعماء قريش الدالة على الناس بما امتازوا به من
صحبة الرسول عليه السلام فأخضع نقوص الخاصة إرضاء للعامة .
(أَتَيَ عَمْرُ بْنَ عَالٍ فَعَلَ يَقْسِمَهُ بَيْنَ النَّاسِ فَازْدَحَمُوا عَلَيْهِ، فَأَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ
أَبِي وَقَاصٍ يَزَاحِمُ النَّاسَ حَتَّى يَخْاصِرَ إِلَيْهِ فَعَلَاهُ عَمْرٌ بِالدَّرَّةِ وَقَالَ لَهُ :
إِنَّكَ أَقْبَلْتَ لَا تَهَابْ سَلْطَانَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ فَأَحْبَيْتَ أَنْ أَعْلَمَكَ أَنْ
سَلْطَانُ اللَّهِ لَا يَهَا بَكَ) .

ولسنا بسبيل أن نعدد منهج عمر . ومجامع القول أن عمر سار في الناس
بسياحة جمعت بين الشدة واللين والتزاهة وبعد عن الغرض ، فلم يجد
أحد سبيلاً إلى إعلان تبرمه أو إلى مغنم في عمر ، وكان أعجب شيء يقتضيه
للشخصيات الكبيرة في الدولة ومحاسبتهم على ما يقولون ويفعلون حتى
قيل : إن حاكماً كبيراً مثل معاوية كان يخاف عمر أشد من خوف يرافقه
غلام عمر من سيده .

ولما طعن عمر رأى أنه ميت لا محالة فكر فيمن يتولى الأمر من
بعده وقد لقي التعب والنصب في سياسة الناس . ولما كان أبو بكر لقي
ربه متحملًا تبعه اختياره لم يشا عمر أن يحمل هذا العبء ووجده ثقيلاً
على نفسه ، وقد لا تصدق فراسته فيمن يوليه فيلق الله ويحاسبه على
ما صنع بالأمة . وماذا يصنع رجل مطعون والدم ينزف منه ! خاف
حساب الله في آخر مرحلة من مراحل الدنيا . لقد استولت عليه الحيرة :
أيسير على طريقة الرسول فيترك الأمر للمسلمين دون تعين أو ترشيح ؟
أم يتبع طريقة أبي بكر من حيث التعين ؟ على أنه خشي الأمرين جائعاً ؟

إذ رأى بنفسه ما أدى إليه التنافس الشديد في الخلافة بعد موت الرسول ولما يدفن ، كذلك خشى أن يعيّن شخصاً بالذات لأن انتقاء مثل ذلك الشخص أمر عسير ؛ إذ لم يجد بين المسلمين من يدانبه قوة وبأساً ، ولأنه الآن – الموت يدنو منه – على حال فزع منها أن يستغله باختيار من يخلفه ، وخشى أن يكون للناس في تصرفه مطعن . لهذا نراه سلك سبيلاً ثالثاً يجمع بين الرأيين حتى لا يترك جماعة المسلمين دون الفصل في هذا الموضوع . نراه رشح ستة من رجالات عصره ممن توفي النبي وهو عنهم راض ، والذين كان عمر لا يفتاً يذكرهم بما كان لهم من مواهب ومزايا توكلهم لتولى أمور المسلمين ، وهم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين .

اجتمع هؤلاء الستة بأمر عمر بن الخطاب للتشاور ثم ارتفعت أصواتهم فقال عبد الله بن عمر : سبحان الله ! إن أمير المؤمنين لم يمت . وأسمعه ذلك فانتبه وقال : ألا أعرضوا عن ذلك أجمعين فإن مت فتشاوروا في الأمر ثلاثة أيام ، وليصل الناس صهيب ، ولا يأتينَ اليوم الرابع إلا عليكم أمير منكم ، ويحضر ابني عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له في الأمر ، وطلحة فهو شريككم فيه فإن قدم فأحضاروه أمركم ، وما أظن أن يلي إلا هذان الرجالان : علي أو عثمان . فإن ولى عثمان فرجل فيه لين . وإن ولى علي فرجل فيه دعاية . وأخر أن يحملهم على طريق الحق . وإن تولوا سعداً فأهلها هو وإن فليست عن به الوالي ؛ فإني لم أعزله

عن خيانة ولا ضعف . ونعم ذو الرأى عبد الرحمن بن عوف مسدد
رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه .

وقال لأبي طلحة الأنصارى : يا أبا طلحة إن الله طالما أعز الإسلام
بك فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحق بهم هؤلاء الرهط حتى
يختاروا رجالاً منهم .

ولما دفن عمر جمع المقداد بن الأسود أهل الشورى في بيت المسور بن
مخمرة كما أشار عليه عمر بذلك ، وهم خمسة معهم عبد الله بن عمر وكان طلحة
غائباً ، وعلى الرغم من أن عمر قد حصر الانتخاب في ستة رجال ورسم لهم
الطريق التي تتبع في الانتخاب فإن الأمر لم يمر بسهولة ، لأن كلاً من
هؤلاء كان شديد الحرص على أن يلي الخلافة بنفسه إن لم يلها أحد من
أقربائه وذوي عصبته بما لهم من المكانة والشخصية والصلاحية . ويعتبر
ابن عوف رضى الله عنه المحور الذي تدور عليه رحى الحوادث في قصة
الشورى ، فقد استطاع بحكمته وحسن سياساته أن يحل العقدة في هذه
المشكلة: وذلك أنه اقترح اقتراحًا يتلخص في أن ينتهي كل واحد منهم عن
حقه في الترشيح للخلافة على أن تكون له الكلمة الفاصلة فلم يحبه أحد
فقال : أنا أخلع ، فلقيت هذه الكلمة هوئي عند عثمان فقال : أنا أول من
رضي فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أمين في الأرض
أمين في السماء . فقال القوم : قد رضينا . وأما على فقد كان ساكتاً
لا يتكلم ، فقال ابن عوف : ما تقول يا أبا الحسن ؟ فقال : أعطني موئلاً من
الله لتوثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخصل ذارحم ولا تألو الأمة خيراً .
(٢)

ثم أخذ عبد الرحمن من الصحابة المواثيق على أن يكونوا معه على
من بدَّل وغيرَه وأن يرْضُوا بما يستقر عليه رأيه فأجابوه إِليها وأعطاهم مثلها.

أخذ عبد الرحمن بعد ذلك يختلى بالمرشحين الموجودين فيقول لعلى :
أرأيت لو صُرِفَ الأمر عنك فلم تحضر من كنت ترى من هؤلاء الرهط
أحق بالأمر؟ قال : عثمان بن عفان . وخلال بعثة عثمان فقال له مثل ما قال لعلى
قال : على بن أبي طالب . وفعل ذلك مع سعد بن أبي وقاص والزبير
ابن العوام وقد قالا : عثمان . وفي صبيحة اليوم الرابع جمع عبد الرحمن
ابن عوف - الذي لم يتم طيلة هذه الأيام الثلاثة - الرهط وبعث
إِلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وإِلى
أمراء الأجناد وخطب فيهم ، فقال عماد بن ياسر : إن أردت ألا يختلف
المسلمون فبایع عليناً . وقال المقداد بن الأسود صدَّقَ عماداً إن بايَعْتَ عَلَيْهَا
قلنا سمعناً وطاعة . وقال عبد الله بن أبي سرح : إن أردت ألا يختلف قريش
وبایع عثمان . فقال عبد الله بن أبي ربيعة : إن بايَعْتَ عَثَمَانَ قلنا سمعنا
وأطعنا . فشتم عماداً بن أبي سرح وتلاه بنو هاشم وبنو أمية . فتقى دارك
عبد الرحمن الأمور ودعا عليناً وقال له : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن
بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفتين من بعده . فقال على : أرجو
أن أفعل وأعمل ببلغ عامي وطاقتى . ودعا عثمان فقال له مثل ما قال
لعلى . فأجابه إلى طلبة فبایعه عبد الرحمن بالخلافة ، عند ذلك قال على :
ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا فصبر جيل والله المستعان على
ما تصفون . والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو

فِي شَأْنٍ . ثُمَّ بَايْعَ عَلَى عُثْمَانَ وَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ : سَيَبْلُغُ الْكِتَابُ أَجْلَهُ .
وَكَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمِ الْاثْنَيْنِ لِلْلَّيْلَةِ بَقِيتُ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةً ثَلَاثَ
وَعَشْرِينَ مِنَ الْهِجَّرَةِ (٧ نُوفُمبرَ سَنَةُ ٦٤٤ م)

لَا شَكَ أَنْ عُمَرَ أَرَادَ أَنْ يَسْدِدْ ذِرَائِعَ النِّفَاقِ وَيَحْنِبَ الْأُمَّةَ الْخِلَافَ ،
وَلَكِنَّهَا وَقَعَتْ فِيمَا أَرَادَ أَنْ يَحْنِبَ إِلَيْاهُ : يَشِيرُ إِلَى ذَلِكَ مَا رُوِيَّ مِنْ أَنْ
مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفِيَّانَ سَأَلَ ابْنَ الْحُصَيْنَ حِينَ وَفَدَ عَلَيْهِ وَكَانَ ذَا عَقْلٍ
وَرَوْيَةً : مَا الَّذِي شَتَّتَ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ وَخَالَفَ يَنْهَمُ ؟ قَالَ ابْنُ الْحُصَيْنَ :
قُتْلَ النَّاسُ عُثْمَانُ . قَالَ مَعَاوِيَةً : مَا صَنَعْتَ شَيْئًا . قَالَ : فَسَيِّرْ عَلَى إِلَيْكَ
وَقَاتَالَهُ إِيَّاكَ . قَالَ : مَا صَنَعْتَ شَيْئًا . قَالَ : فَسَيِّرْ طَلْحَةَ وَالزَّيْرَ وَعَائِشَةَ
وَقَاتَالَ عَلَى إِيَّاهُمْ . قَالَ : مَا صَنَعْتَ شَيْئًا . قَالَ مَا عَنِّي غَيْرُ هَذَا يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ : فَإِنَا أَخْبُرُكَ : إِنَّهُ لَمْ يَشَتَّتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا فَرَقَ
أَهْوَاءَهُمْ إِلَّا الشُّورِيُّ الَّتِي جَعَلَهَا عُمَرٌ إِلَى سَتَةِ نَفَرٍ . وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ
مُحَمَّدًا بِالْهُدَى وَدِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْكَرَهُ الْمُشْرِكُونَ . فَعَمِلَ
عَلَى أَمْرِهِ اللَّهِ بِهِ ثُمَّ قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَقَدَّمَ أَبَا بَكْرَ لِلصَّلَاةِ فَرَضَوْهُ لِأَمْرِ دُنْيَاِهِمْ
إِذْ رَضِيَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَمْرِ دِيَنِهِمْ ، فَعَمِلَ بِسَنَةِ الرَّسُولِ
وَسَارَ بِسِيرَتِهِ حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ ، وَاسْتَخَلَفَ عُمَرَ فَعَمِلَ بِعَثْلِ سِيرَتِهِ ؛ ثُمَّ
جَعَلَهَا شُورِيًّا بَيْنَ سَتَةِ نَفَرٍ ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا رَجَاهَا لِنَفْسِهِ
وَرَجَاهَا لِهِ قَوْمَهُ وَتَطَلَّعَتْ إِلَى ذَلِكَ نَفْسُهُ . وَلَوْ أَنَّ عُمَرَ اسْتَخَلَفَ عَلَيْهِمْ
كَمَا اسْتَخَلَفَ أَبَا بَكْرَ مَا كَانَ فِي ذَلِكَ الْخِتَالَفِ .

وَهَذَا الرَّأْيُ هُوَ رَأْيُ الْحَصِيفِ الْجَرِبِ الَّذِي حَلَبَ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ ،

وغلب برأيه ودهائه صاحب الحق على حقه ، وأقام دولة الإسلام على تخوم دولة الروم موطدة الأكناfe قوية الدعائم ، وحاشا لعمر أن يتهمه أحد فيها فعل ، فإنه لم يرد إلا الخير لل المسلمين جاهداً . وكان أعظم ما يرجوه من ذلك ألا يكون خلاف وافتراء بين المسلمين حتى لا يصيّبهم الوهن والإسلام لا يزال غضاً وحكومة المسلمين لما تثبت دعائهما وترسُّ أصولها .

وأكبر الظن عندنا أن عمر لو كان في حال غير هذه فربما فضل أن يريح المسلمين من العناء والمناوشتات الحزبية ويعهد إلى من هو أهل للخلافة ؛ فقد يجد الناس لهذا التعيين حرمة تُسكت الألسنة والدولة لا نزال فتية ، أعدى أعدائها الشقاق والانقسام ، ولكن عمر لما إلى ما يصنع من يريد ألا يتحمل وزر الأمة حياً وميتاً ، بجعل الخلافة شورى في ستة نفر ممن مات رسول الله وهو عنهم راض . وبعد مفاوضات بينهم كاً تقدم وكلاً أمر اختيار الخليفة لعبد الرحمن بن عوف بعد أن تعهد لهم أن ينزع نفسه منها ، فاستشار الناس فوجد جمهورة توئيد علياً وجمهورة أكبر منها توئيد عثمان ، وذلك لأن الناس سئموا سياسة الشدة في عهد عمر ورجوا أن يتولى عليهم من يرفق بهم ، وكان في عثمان لين ورأفة فرجحت أصوات عثمان على أصوات علي ، فاختاره الخليفة وتقاطر الناس لبيعته .

مقدمات الثورة

(١) بنو أمية وبنو هاشم

ولد عبد مناف أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم ولدان سار كل في سبيل من سبل الحياة لها هاشم وعبد شمس : فأما عبد شمس فقد تفرع منه أمية جد الأمويين ، وأما هاشم فهو جد الماشيين .

وشاء الله أن يكون الأمويون تجارةً واسعى الثروة كثیری العدد بارعين كل البراعة في عقد الصلات الاجتماعية بينهم وبين الناس ، وأن يكون بنو هاشم سادة الناس وذوى الشرف فيهم لما لهم من خدمة الكعبة والمراسم الدينية الموروثة . فكان لهم الشرف العظيم بالرفادة : يبذل المال للناس في موسم الحج ، وبالسقاية : بسق الحجيج ؛ فهم موئل حجاج الكعبة قبل الإسلام ، والناس يرءون حقهم و لهم في نفوذهم حرمة و ذمماً .

وقد كانت المنافسات على الرئاسة بين هاتين القبيلتين قوية في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام وصارت النبوة في بنى هاشم رجحت كفتهم على كفة أبناء عمهم بنى أمية . وهذا على الحقد واضطربت البغضاء في نفوذهم ف كانوا أشد الأعداء للرسول قبل فتح مكة ، وزعيمهم أبو سفيان ابن حرب بن أمية ، وكانت الحرب بين الرسول ومعه المهاجرون والأنصار ، وبين أهل مكة يقودهم رعوس الأمويين وقادتهم أبو سفيان . فلما فتح الرسول مكة أسلم هؤلاء جميعاً وصاروا جنداً من جنود الإسلام

وهنا يجب على المنصف أن يسدل على الماضي ستاراً كثيفاً من رحابة الإسلام ، فانخلاف السياسي لا يمس العقيدة ولا يتزعزع إلى تحريره الناس مما رضى عنه الرسول وقبله من حسن إسلام بنى أمية واتخاذهم حكامًا مؤمنين على رسالة الإسلام إلا من شذ منهم . وهذا انخلاف بعض المؤرخين الذين لم يرعوا حرمة الإسلام في هؤلاء الناس وخلطوا ماضيهم في الجاهلية بحاضرهم في الإسلام .

ومهما يكن من شيء ، فثقة الإنسان بنفسه أنه أهل للريادة متترس بسياسة الناس وأوفر عدداً وأكثر مالاً – كل أولئك أدوات الحكم في القديم والحديث . ومعاذ الله أن ندخل الكفر والإيمان والإخلاص في العقيدة في نزاع سياسي وما رأب في الملك والسلطان ؟ فقد دار الزمان دورته ، وإذا يبني أمية ملوك يحكمون الناس والإسلام هو الإسلام ، ييد أن تقلبات الزمن لها أحكامها والملابسات السياسية والاجتماعية تداول بين الناس في آرائهم وتبين بين مذاهبهم . وبعد أن وضعنا السد الذي وضعه الإسلام في الحكم على الأشخاص قبل الإسلام وبعده نعود إلى ما كنا فيه .

أسلم أهل مكة بعد الفتح وعلى رأسهم زعماء قريش ، واتسع بعد ذلك الملك الإسلامي ، وكان الرسول خيراً برجاته يوجه كلّاً فيما يليق به . أما قرابة الرسول من بنى هاشم فهم يتلقون الوحي عنه وينشرون الدين ، وقد زادتهم رسالة النبي شرفاً على شرف ، فهم مطمئنون إلى ما آتاهم الله من عز ورياسة وفضل على الناس . وأما بنو أمية فقد

رأى فيهم الرسول عليه السلام حصافة في سياسة الناس بجعلهم حكامًا على كثير من البلاد الإسلامية . قال عمر بن عبد العزيز : توفي رسول الله وأربعة من بنى أمية عماله : عتاب بن أسيد على مكة ، وأبان ابن سعيد على البحرين ، وخالد بن سعيد على صنعاء ، وأبو سفيان بن حرب على نجران . وظل كثير من بنى أمية أمراء على البلاد في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر . فلا غرابة أن يكون الزمان قد مدل بنى أمية في الأمل وازاد حرصهم على الإمارة كلما تعاقب الزمان .

كان معاوية بن أبي سفيان عاملاً على الأردن في عهد عمر بن الخطاب ، وكان أخوه يزيد بن أبي سفيان أميراً على دمشق ، فلما مات نعاه عمر إلى أبي سفيان فقال : من جعلت على عمله يا أمير المؤمنين ؟ قال : معاوية . قال : وصلتك رحم .

قال المقرizi وهو يميل إلى التشيع : (فإذا كان رسول الله قد أسس هذا الأساس وأظهر بنى أمية جميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد فكيف لا يقوى ظنهم ولا ينبعط رجاؤهم ولا يتدنى في الولاية أعمالهم ، أم كيف لا يضعف أمل بنى هاشم وينقبض رجاؤهم وتقصر آمالهم ؟ لم يكن في عمال رسول الله ولا عمال أبي بكر وعمر أحد من بنى هاشم ، فهذا وشبهه هو الذي حدد أنيات بنى أمية وفتح أبوابهم وأترع كاسفهم وقتل أمرائهم) .

فلما ولى الخلافة عثمان بن أبي العاص بن أمية تنفس

الأمويون الصعداء وعamuوا أن الفرصة سنتحت وقوى أملهم في الملك
الموروث والسيادة الدائمة على الناس .

نعم إن عثمان أموي ولكنـه صار خليفة عن شورى أصحاب رسول
الله ، وهو رجل نزـيه النفس كلـ آماله منحصرـة أن يوفقـه الله خـير المسلمين .
وأما ما يحـول بـخاطـر الأـجانـب والأـشـيـاع فـهـوـ أمرـ منـ وـرـاءـ ظـهـورـهـ .

وـظـلـ الأمـويـونـ يـعـمـلـونـ فـيـ الـخـفـاءـ أـلـاـ يـفـلـتـ الـأـمـرـ مـنـ أـيـدـيـهـمـ فـيـ
(ـالـمـسـتـقـبـلـ حـتـىـ اـنـكـشـفـ الـأـمـرـ وـكـانـتـ مـاـرـبـهـ حـرـبـاـ عـلـىـ عـمـانـ وـعـامـلاـ
مـنـ عـوـاـمـلـ الـثـوـرـةـ عـلـيـهـ .ـ وـهـذـاـ قـوـلـ مـرـوـانـ بـنـ الـحـكـمـ اـبـنـ عـمـ عـمـانـ
وـقـدـ خـرـجـ إـلـىـ الثـوـارـ حـيـنـاـ حـاـصـرـوـ دـارـهـ :ـ أـجـئـتـمـ تـرـيـدـونـ أـنـ تـنـزـعـواـ
مـلـكـنـاـ مـنـ أـيـدـيـنـاـ ؟ـ اـرـجـعـوـاـ إـلـىـ مـنـازـلـكـمـ فـإـنـاـ وـالـلـهـ مـاـ نـحـنـ بـغـلـوـبـينـ عـلـىـ
مـاـ فـيـ أـيـدـيـنـاـ .

وـأـمـاـ قـرـابـةـ الرـسـوـلـ مـنـ بـنـيـ هـاشـمـ فـكـانـ عـلـىـ رـأـسـهـمـ الشـابـ العـالـمـ
وـبـطـلـ الذـكـرـ الـورـعـ عـلـىـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ ،ـ فـلـمـاـ تـوـفـيـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ
عـلـيـهـ وـسـلـمـ كـانـ رـأـيـهـ أـنـ الـعـدـالـةـ تـقـضـيـ أـنـ يـكـوـنـ خـلـيـفـةـ الرـسـوـلـ ؟ـ لـأـنـهـ
إـنـ كـانـ الـأـمـرـ أـمـرـ قـرـابـةـ قـرـيبـةـ فـهـوـ أـوـلـىـ النـاسـ ،ـ وـإـنـ كـانـ الـأـمـرـ لـقـرـيـشـ
لـأـنـ رـسـوـلـ اللـهـ قـرـشـىـ وـهـ بـهـذـاـ النـسـبـ أـوـلـىـ مـنـ الـأـنـصـارـ فـأـجـدـرـ النـاسـ
بـالـأـمـرـ اـبـنـ عـمـهـ .

أـمـاـ جـمـهـرـةـ الـمـهـاجـرـينـ فـرـأـتـ أـنـ مـاـدـامـ الرـسـوـلـ لـمـ يـعـهـدـ لـأـحـدـ فـأـحـقـ
الـنـاسـ بـذـلـكـ أـعـظـمـهـمـ هـيـةـ وـأـشـدـهـمـ اـحـتـرـامـاـ فـيـ النـاسـ وـبـلـاـةـ فـيـ الـإـسـلـامـ ،ـ
وـهـوـ أـبـوـ بـكـرـ الصـدـيقـ ،ـ وـلـعـلـهـمـ تـفـادـوـ الـخـلـافـاتـ الـحـزـيـةـ أـيـضـاـ فـعـهـدـوـاـ

بالأمر للصديق فلم يسع عليا إلا الرضا والدخول فيما دخل فيه المسمون .
قال عمر لابن عباس : أتدرى مامنع الناس منكم ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : لكنى أدرى . كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجيئوا جحضاً^(١) ، فنظرت قريش لأنفسها فاختارت ووفقت .
ولكن بني هاشم أسرة الرسول صلى الله عليه وسلم تهوى إليها قلوب الناس ، وكلما امتد الزمن تغلغل حبهم في النفوس ، وكان فريق من الناس يرى حبهم عبادة يتقرب بها إلى الله ، وما زال أمرهم ينتشر في الأوساط الإسلامية ؛ في الحجاز وفي خارج الحجاز حتى كبر حبهم ورجا الناس أن تكون الخلافة فيهم ، وكانت قبل ذلك أملأ تجيش به النفوس ، ظهر أثره عند استخلاف عثمان . فلما أخذ بنو أمية يتعالون في البناء في خلافة عثمان أثار ذلك ما كمن في نفوس العلويين وكان من أمر هذا الخلاف ما كان .

(٢) الحياة الاجتماعية في عهد عثمان

تولى الخلافة عثمان رضى الله عنه أمداً طويلاً لا يقل عن اثنتي عشر عاماً ، فكثرت ستة أعوام من حكمه والفتح الإسلامية تتواتي وجنود المسلمين يوغلون في كثير من أقطار الأرض : فتحوا بلاد فارس وقسموا عظيماً من بلاد الروم ، وما زالوا يقاتلون حتى وصلوا إلى حدود الصين والترك ، فهاجر كثير من القبائل العربية من الحجاز إلى العراق والشام ومصر وكثير من البلاد المفتوحة ، وانحذت بعض القبائل الأرض

(١) تستأثروا بأسباب الشرف والسيادة : النبوة والخلافة .

الجديدة دار إقامة ، وترح كثير من بطونها إليها ، وتدفق الخير على المسلمين من كل مكان وطئته قدم مسلم ، والأموال التي لا حصر لها تأتي إلى المدينة مقر الخلافة فيوزعها عثمان على الأغنياء والفقراء حتى أصبح عدد كبير من الصحابة بتواли الفتوح من عهد النبي إلى عهد عثمان من كبار الموسرين ، وكان عثمان ميسوط اليد سخياً رقيق القلب سهل الأخلاق ، يدير سياسة الدولة في رفق ولين ، يعطي هذا ويرضى غضب ذاك ؛ فإذا عرض له أمر من الأمور غلت عليه طبيعته خاول أن يوفق بين الآراء المتناقضة والأهواء المتعارضة ؛ فكل له من سماحة أخلاقه نصيب ؛ غير أن هذا الخلق الطيب إن حسن في سياسة الأفراد فقد يكون شديد الخطأ في سياسة الجماعة . قال ابن عمر : (لقد عييت عليه أشياء لفعلها عمر ما عييت عليه) لهيبة عمر وشدة وسماحة عثمان وسهولة .

قال الحسن البصري : شهدت عثمان وهو يخطب وأنا يومئذ قد راهقت الحلم فرأيت قط ذكرًا ولا أنت أصيح وجهًا ولا أحسن نضرة منه فسمعته يقول : أيها الناس : اغدوا على أعطياتكم . فیأخذونها وافية . أيها الناس : اغدوا على كسوتكم . فيغدون ، فيجباء بالحلل فتقسم بينهم حتى والله سمعت أذناي : يا معاشر المسلمين : اغدوا على السمن والعسل ، فيغدون فيقسم بينهم السمن والعسل . ثم يقول : يا معاشر المسلمين اغدوا على الطيب فيغدون فيقسم بينهم الطيب من المسك والعنبر وغيرهما . والعدوان والله منفي ، والأعطيات دائرة والخير كثير ،

وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً . من لقى مؤمناً في أى البلدان فهو
أخوه وأليفه وناصره ومؤويه .

كان ذلك وجيوش المسلمين تغزو ؛ فالبلاد الإسلامية في نعمة
وافرة ، وعسكر المسلمين مشغولون بالحرب ، وعيون الناس متطلعة لهذه
الجيوش المظفرة حيناً وهذا الخير المحتلب حيناً آخر ، حتى إذا استراحت
الجيوش من الغزو بعد ما فتحت أكبر رقعة من البلدان كان من الطبيعي
أن تتجه كل هذه الجماهير من المسلمين إلى الحاكم الأكبر وإلى نوابه
من الحكام في المدن والأقصارات ، فأخذوا عليه وعلى ولاته الفتة والنظرة ،
وحاسبوهم على الصغير والكبير ، ولم يقدّر أن يكون ذلك في عهد عمر ،
إذ لو كانت كذلك ل كانت له سياسة يتبعها عقله الجبار ، فيخافه
الناس ويرضون .

وقد قلنا إن اتساع نطاق الفتوح ضاعف ثروة المسلمين ، وإن
رجوعهم من الغزو أدى لتطبعهم إلى ما يبغون من نصيب في هذه
الثروة الواسعة ، فكان الموقف يحتاج إلى مهارة اقتصادية في الدولة
وجهود جبارة تعمل على استقرار نظام الثروة بتوزيعها توزيعاً مناسباً
في كل مكان ، فعمل عثمان ما استطاع في الحدود التي اتسع لها نطاق
عقله واستجابت لها طبيعة العطف ورقة القلب والتسامح ، فكان
طبعياً أن يتحاسد الناس على المطامع وينظر كل فريق إلى مقدار
مال الآخر .

هؤلاء أصحاب رسول الله المهاجرن أحسوا بالرفاهة ونعموا العيش

وما كان مترف واسع الثراء متعدد نواحي المال من ذهب وفضة وإبل وشأن أن يحصر ثروته في مكان ضيق ، فتطلع أنظارهم إلى الأرضى الواسعة وأودية النعيم المخصبة من العراق والشام ومصر ، وكان عمر يوجس خيفة من انسياحهم في الأمسكار فيجزهم في الحجاز إلا بإذن وإلى أجل ؛ ذلك لأنهم مشيخة العرب ولهم رأى ولسان ، والناس في الأمسكار الإسلامية يتطلعون إليهم ويقدرون صلتهم بالرسول وتلقיהם الدين عنه ؛ فربما أفلتت كلة من لسان عن غير قصد فكانت سبباً في اختلاف الناس ، والناس لا يزلون حديثي عهد بهذه الدولة التي كان يحرص الخلفاء والحكام على دعمها وتبنيت قواعدها .

هذا الرأى الذى ارتآه عمر فيه تضييق على الحرية الشخصية ، ولكن فيه سلامـة الدولة ، وكان حرص عمر على هذه المسألة بالذات قد وصل إلى حد المبالغة في التضييق .

قال الشعبي : (لم يعت عمر حتى ملته قريش وكان حصرهم بالمدينة وقال : إن أخوف ما أخافه على هذه الأمة انتشاركم في البلاد ، فإن الرجل ليستأذن في الغزو – وهو من حبس بالمدينة من المهاجرين ، ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة – فيقول : قد كان لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغك ، وخير لك من الغزو اليوم إلا ترى الدنيا ولا تراك) فاما كان عثمان خلي عنهم رغبة في الإكثار من سواد عظام المسلمين وصلاحهم في البلاد المفتوحة ، وكان حسن النية فاضطرروا في البلاد وانقطع إليهم الناس .

إذاً فقد استقبلت البلاد الإسلامية أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وجلس إليهم الناس واستمعوا لبناء الإسلام الذين فدوه بدمائهم وأموالهم، والذين صاحبوا الرسول ورأوه بأعينهم وأشاروا بآحبه وطالت صحبتهم له، فخديتهم عنده حديث مشافهة، وحبهم له حب خالص؛ فالنبي كان آثر عندهم من آباءهم وأبناءهم، فرأى الناس هذا المنظر الجديد وازدادوا في التقرب إلى هؤلاء الصفوة من أصحاب الرسول.

حقاً لقد فشت القالة في الناس وجروا على طبيعة الإنسان وبخاصة أن عمر رشح عدداً للخلافة وكان يمكن أن يظفر أى واحد من هذا العدد بها. فعلل بعضهم يقول. لو كان على لكان خيراً، ولو كان طلحة لكان أفعع، ولو كان الزبير لكان أجود، ولو كان سعد لكان أحسن، ولو كان عبد الرحمن بن عوف لكان أعدل. قال المرحوم الأستاذ الخضرى بك : (وكانت قريش - بحسب القاعدة التي كانت متبعة - كأعضاء الأسرة التي لها الأمر، كبارها مرشحون لأن يلوى الخلافة يوماً ما ، وليس هناك نظام يبين سابقهم ولا حقهم ، ومع ذلك فهم متباعدو العشائر مختلفو الأسر ، فكان نظر عمر والحال ما ذكرنا دقيقاً في الحجر على أعلامهم أن يمارحو حاضرة الخلافة) ، ثم الأحوال الاقتصادية وتوسيع مرافق الحياة من طبعهما أن يلدا الكلام ويوجهها الألسنة ، فإذا حكام يضربون على الأيدي فيخشى الناس بأسمهم ، وإنما أنظمة اجتماعية تشمل الناس وتقتصر على ألا يتعدوها ، ولم يكن هذا ولا ذاك بالمعنى الدقيق في عهد عثمان . نعم إن التشريع الإسلامي وضع

الأنظمة الاجتماعية، ولكن تنفيذها من الناحية العملية يحتاج إلى وقت طويل كما هي طبيعة الاجتماع البشري، فإذا كان أبو بكر وعمر اجتازا هذه الأخطار فـ فـ سلم منها عثمان؛ فقد تشعبت عليه المشكلات وتفتحت أمامه الأبواب، وما كان له أن يقدر على سدها بفرده، وتعددت وجوه السخط والرضا، وابتداأت الخلافات صغيرة ثم كبرت واستفحـلـ أمرها وكانت في حاجة إلى علاج حاسم يقضي عليها في مهدـهاـ، ولكن اتسـعـ الخـرقـ على الواقع ولم يكن في مقدور رجل مثل عثمان مقاومتها والقضاء عليها.

لما أذن عثمان للمهاجرين بالإقامة في البلاد المفتوحة باعوا أرضهم وبساتينهم التي بالحجـازـ واشتروا بـثمنـهاـ بـسـاتـينـ وأـرـاضـىـ فيـ الـبـلـادـ الـتـيـ حلـوـهـاـ؛ فـ فـ انتـقلـواـ إـلـيـهاـ وـهـمـ أـغـنـيـاءـ فـ فـ نـظـرـ النـاسـ إـلـيـهمـ منـ نـاحـيـةـ أـخـرىـ واستـرـجـعواـ تـارـيخـ الرـسـولـ وـأـبـيـ بـكـرـ وـشـفـقـ العـيـشـ الـذـيـ كـانـواـ فـيـ ثـمـ نـظـرـواـ إـلـيـ أـنـفـسـهـمـ، فـ فـ دـارـتـ الأـحـادـيـثـ دـورـانـ الـكـهـربـيـ فـيـ الـأـجـسـامـ، وـالـعـامـةـ سـرـيـعـةـ التـصـدـيقـ لـكـلـ مـاـ يـقـالـ، فـ فـ انتـجـتـ شـيـئـاـ وـاحـدـاـ طـبـيعـاـ فـ فـ كـلـ أـمـةـ وـبـلـدـ وـهـوـ السـيـخطـ عـلـىـ الـحـكـامـ وـأـنـقـادـهـمـ فـيـماـ عـزـ وـهـانـ.

هذه القصور بنيت خلاصة قريش في الكوفة والبصرة، وتلك الضياع يعلـكـهاـ أـصـحـابـ الرـسـولـ وـذـوـوـ الـقـرـبـيـ منـ السـلـطـانـ، فلا يمكن أن تسـكـتـ الـأـلـسـنـةـ وقد حـلـتـ منـ عـقـالـهـاـ فـيـ زـمـنـ عـثـمـانـ وـكـانـتـ معـقـولةـ

فـ فـ زـمـنـ عـمـرـ حـتـىـ قـالـ قـائـلـهـمـ :

لـأـ نـارـ نـخـوـفـهـاـ فـنـخـشـيـ وـلـيـسـ لـهـمـ فـلـاـ يـخـشـونـ نـارـ
فـ فـ بـعـدـ أـنـ كـانـ الـخـلـافـ عـلـىـ عـثـمـانـ يـتـرـدـدـ سـرـاـ بـيـنـ مـنـ يـتـعـلـقـونـ بـعـلـىـ

رضي الله عنه جدت مسألة برزت كل البروز وهي حسد قبائل العرب لقريش عامة وشعورهم بالحرمان من كثير من الميراث المادي التي كانت تتمتع بها قريش ؛ ولذلك نجد كثيراً من الثوار على عثمان من قبيل مختلف جمع يديها السخط العام ، والعرب مهما يكن من انتظام الإسلام قلوبهم ، فهم ناس من البشر لهم طباع غريزية يشتراك فيها البدوي والحضري إلى يوم الناس ؛ فلسنا نجاري بعض المؤرخين في انتقادهم طبيعة العرب ، ولسنا نبحث في مبلغ قوّة إيمان الثائرين في فتنة عثمان ، ولكن الثورة في كل العالم عمياً ، والنفوس إذا هُيئت لها تحركت العاطفة وجد العقل ، لا فرق في ذلك بين عالم وجاهل ، وبين متين الدين ورقيقه .

قال الدكتور جوستاف لو بون في كتابه روح الاجتماع : (إن في جميع النفوس المدركة استعداداً لتوليد أخلاق جديدة تظهر إذا تغيرت البيئة تغييراً فجائياً ، هكذا رأينا بين رجال الثورة الفرنسية أفراداً كانوا كالوحش الضواري وقد كانوا في زمن السلم قضاء من ذوى الفضل . وأعظم الناس لا يتفاوتون عن العامة في الأمور التي مرجعها الشعور كالدين والسياسة والأداب والميل والنفور وهكذا إلا نادراً ، فقد يكون بين الرياضي الكبير وبين صانع حذائه بعد ما بين السماء والأرض من حيث العقل والذكاء ، ولكن الفرق بينهما في الطياع معروم في الغالب أو ضعيف للغاية)

فإذا نظرنا إلى الناس في زمن عثمان في ضوء هذا الرأى ونظرنا إلى ثورات كثيرة في العصور الوسطى والحديثة نخرج بنتيجة واحدة وهي

أنه ليس من الضروري أن تكون الثورة ناشئة من أسباب قوية موجبة لها بحيث لا تعالج إلا بالثورة، وإنما يكفي أن تتبيل الأذهان فتنشأ ثورة تأكل الأخضر واليابس؛ والثورة في عنفوانها لا يجدى فيها الإنقاص ولا ينفع في إخراجها الحجة، كالمجىء روضها الطبيب ويقف دون استعارتها وشدتها حتى تستوفى أمدها من غير أن تعقب خطاً؛ فإذا لم توفق المجرى إلى طبيب حاذق ولم توفق الثورة إلى سياسي ماهر روضها فيمكر الناس ويناورهم ويستجيب لعواطفهم فالخطر متوقع، وهكذا كان الأمر في الثورة على سيدنا عثمان أو قل إنه سوء حظه وقدر الله فيه.

(٣) الأمسار أو كار الفتنة

مصر :

ظل عمرو بن العاص واليًا على مصر منذ فتحها على عهد عمر إلى عهد عثمان، فسار في الناس سيرة المجرب الحازم، ولكن رجلاً أبلى بلاء حسناً في طرد الروم من الأسكندرية في غزوة ذات الصوارى وفتح جزءاً من إفريقية هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان أخاً عثمان من الرضاع وكان النبي عليه السلام اتخذ كاتباً له فبدل وغير في آى القرآن فأهدر النبي دمه فشفع له عثمان، فأصبح مطعوناً فيخلق والدين بين المسلمين، ومع ذلك فإن عثمان حرص أن يجعله واليًا على مصر، فهدى لذلك بتقسيم السلطة بينه وبين عمرو يجعل عمرو واليًا على الحرب وعبد الله واليًا على الخراج، فقال عمرو: أنا إذاً كاسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها، وأبى

هذا التقسيم ؛ فعيّن عثمان ابن أبي سرح على الحرب والخرج وعزل عمراً ،
فكان هذا العمل مفتاحاً للطعن في عثمان وفي ولاته . وزاد الطين بلة
تحول عبد الله بن سبأ الداعية لعلى والمفسد بين المسلمين إلى مصر ،
والتخاذلها عشاً للفتنة ، ولا سيما أنه وجد بها مرتعًا خصباً لأنضمام شخصين
خطرين : هما محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن أبي حذيفة ، وهما من
ألد أعداء عثمان وابن أبي سرح ، وتأمروا فيما بينهم على خلع عثمان ،
وأصدروا الكتب المزورة المنسوبة إلى على إلى الأمسار الأخرى ،
 واستمرت المكاتبنة تجري بينهم وبين البصرة والكوفة والمدينة في
وضع الخطط التي تكفل تهيئة العامة في هذه المدن الثلاث خاصة
والبلاد الإسلامية عامة ، فاضطر ابن أبي سرح أن يغادر مصر إلى
المدينة للشكوى إلى عثمان وتلقى رأيه في هذه الأحداث ، فانهزم ابن
أبي حذيفة هذه الفرصة ودبر الأكاذيب الجريئة لإشعال نار الفتنة في
مصر ! من ذلك أن يكتب الكتب على السنة أزواج النبي ، ثم يأتي
إلى الإبل فيضمرها لنظهر عليها آثار السفر ، ثم يأخذ الرجال فيجعلهم
على ظهور البيوت فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلوين المسافر ،
ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر ويرسلوا رسلاً يخبرون
بهم الناس ليلقوهم وقد أمرهم ابن أبي حذيفة إذا لقيهم أحد أن يقولوا :
(ليس عندنا خبر . الخبر في الكتاب) ، ثم يخرج هو والناس كأنه
يلقي رسول أزواج النبي فيجتمع الناس في المسجد ، ثم يقرأ القاريء
الكتاب فيقول : (إنما النشكوا إلى الله وإليكم ما عمل في الإسلام)
(٣)

فيقوم أولئك الشيوخ من نواحي المسجد بالبكاء ، ويدعو ابن أبي حذيفة الناس إلى الثورة . وقد أرسل عثمان إلى مصر عمار بن ياسر لتحقيق الشكاوى فانضم إلى الثائرين ، فالتهبت مصر بالنقطة على عثمان واستعد دعاة الثورة للعمل بعد أن تكاثر عددهم ، وفشا فيهم النكير على عثمان وتصرفاته في توليه أقاربها وفي توزيع المال عليهم ، وفي مسائل أخرى .

الكوفة :

كانت الكوفة من أكثر الأمصار هرجاً ومرجاً مما اضطر عثمان إلى تغيير الحكم عليها عدة مرات ، ويتبين لنا من تشتت هؤلاء الناقلين بعوفهم ، كما سيأتي لك مع محاولة استرضائهم ، أن المهدى الذى كانوا يرمون إليه وما كانوا يعدلوا عنه بحال من الأحوال هو عزل عثمان فإن أبي فقتله .

تولى على الكوفة سعد بن أبي وقاص ثم الوليد بن عقبة من أقرباء عثمان ، وكان من الكرم والسماحة بمكان عظيم حتى عم الرخاء الكوفة ، فحدثت حادثة أدت إلى الكيد له حتى عزل : ذلك أن بعض شباب الكوفة هجموا على رجل في داره نخرج إليهم بسيفه ولما رأى كثرةهم استغاث فقتلوه ، فشهد مصرعه جار له يسمى أبو شريح الخزاعي وابنه فأخذوه إلى الوليد وشهاد عليهم أبو شريح وابنه ، فكتب الوليد إلى عثمان فيهم فأمره بقتلهم فقتلوا ، فقد أهلهم على الوليد وعلوا على الكيد له فدخلوا عليه مرة ولما رأهم أخفى شيئاً تحت السرير ، وكان طبقاً فيه قليل

من العنبر ، استحياءً منهم ، فأخذوا بعد ذلك يشيعون في الناس
أننا دخلنا عليه وهو يشرب الخمر مع أبي زينب الطائفي ، وكان معروفاً
بشرب الخمر ، هكذا يقول بعض المؤرخين ، وبعضهم يرى أن الوليد
كان حقاً يشرب الخمر ، وأخيراً انتدباً وفداً ذهب إلى المدينة وطلب
من عثمان حده وعزله لشرب الخمر ، فقال عثمان : من يشهد ؟ قالوا : فلان
وفلان فقال : كيف رأيتماه . قالا : كنا في غاشيته فدخلنا عليه وهو
يقيء الخمر . فقال : ما يقيء الخمر إلا شاربها . فبعث إلى الوليد جاءه إليه
وحلف وشرح لعثمان أسباب تآمرهم عليه . فقال عثمان : نقيم الحدود
ويبيوه شاهد الزور بالنار ، وجلد الوليد أربعين جلدة ، وعزله عثمان عن
الكوفة وولي بدله سعيد بن العاص وهو من بنى أمية فأسف الناس على
عزل الوليد لشجاعته وكثرة قتوحه وبره الناس سادة وعيدها حتى لبس
الإمام ملابس الحداد وقلن :

يا ولتنا قد عزل الوليد وجاءنا مجّوعاً سعيد
أما سعيد بن العاص فذهب إلى الكوفة ومعه أولئك النفر الذين
نفذ سهمهم في الوليد ومنهم الأشتر النخعي المشهور في الثورة ومن
شيعة على البارزين ، وصعد المنبر فقال : والله لقد بعشت إليكم ، وإنني
لكاره ، ولكني لم أجدها إذ أمرت أن آخر . إلا إن الفتنة قد أطلعت
خطمها وعينها ، والله لا أضرن وجهها أو تعيني .

وتدلنا هذه الخطبة على أن سعيداً أحس الشر بما عليه أهل الكوفة
وأن الثورة تمخض وتعمل عواملها . وتدلنا عودة الأشتر معه إلى

الكوفة أَنَّ الأَشْتَرَ يَضْمُرُ أَمْوَارًا تَدْبِرُ فِي الْمَدِينَةِ وَتَبِعِضُ وَتَفْرَخُ فِي
الْكَوْفَةِ . وَكَانَ مِنَ الطَّبْعِيِّ أَنْ يَوْسُعَ سَعِيدَ مُجْلِسَهُ لِلنَّاسِ أَعْدَاءَ
وَأَصْدِقَاءَ ، وَأَنْ يَأْخُذُوا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ ، فَقَالَ سَعِيدٌ مَرَّةً :
(إِنَّ السَّوَادَ بِبَسْتَانِ قَرِيشٍ) فَكَانَتْ هَذِهِ الْجَمْلَةُ مُحْرَكَةً لِكَامِنِ الْأَحْقَادِ .
فَقَالَ الأَشْتَرُ النَّخْعَى : (وَتَرَعَمَ أَنَّ السَّوَادَ الَّذِي أَفَاءَهُ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ
بِأَسِيافِنَا بِبَسْتَانِ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ؟) فَقَالَ بَعْضُ أَتَبَاعِ الْأَمِيرِ : لَوْدَدْتُ أَنْ
هَذَا الْمَلَاطِطَ لَكَ (أَىٰ مَا كَانَ لِآلِ كُسْرَى عَلَى الْفَرَاتِ) فَضَرَبَ بَعْضُ
الْحَاضِرِينَ . وَنَارُ الْأَشْتَرِ وَابْنُ الْكَوَافِ وَعَمِيرُ بْنُ صَابِيٍّ وَهُؤْلَاءِ الْثَّلَاثَةِ
مِنْ رُؤُسِ الثُّورَةِ .

هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي سَقَنَاهُ لَهُ خَطْرَهُ ، فَإِنَّ قَرِيشًا كَانَتْ نَمِيزَةً عَلَى
سَائِرِ الْقَبَائِلِ بِالْمَالِ وَاقْتِسَامِ الْأَرْضِ ، وَكَانَتِ الْقَبَائِلُ الْأُخْرَى الَّتِي
يَنْتَهُمُ بَعْضُ زُعمَاءِ الثُّورَةِ سَاخِطَةً لِعدَمِ اشْتِراكِهَا اشتِراكًاً فَعَلِيًّا فِي
الثِّروَاتِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي أَتَتْ مِنْ أَسْلَابِ الْفَتوْحِ ، فَتَفَاقَمَ حَقْدُهَا عَلَى
قَرِيشٍ مِنْ نَاحِيَةِ ، وَعَلَى بَنِي أُمِّيَّةِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى؛ فَلَمْ يَسْعِ سَعِيدًا
إِلَّا أَنْ يَلْجُأَ إِلَى الْخَلِيفَةِ عُمَانَ يَدِيَتْ إِلَيْهِ شَكَانَهُ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ ،
فَكَانَ رَدُّ عُمَانَ أَنْ يَجْمِعُهُمْ وَيَرْسِلُهُمْ إِلَى الشَّامِ حَتَّى لا يَفْسِدُوا أَهْلَ
الْكَوْفَةِ ، فَكَتَبَ إِلَى مَعَاوِيَةَ بِذَلِكَ فَأَنْزَلَهُمْ مَعَاوِيَةَ عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعْةِ
وَأَكْرَمَهُمْ ، وَكَانَ يَظْنُ أَنَّ دَهَاءَهُ يَسْعَفُهُ فِي إِرْضَاهِهِمْ بِخَانَهُ هَذِهِ الْمَرَّةِ . وَكَانَ
مِنْ قَوْلِهِ لَهُمْ : (وَقَدْ بَلَغْنِي أَنَّكُمْ نَقَمْتُ قَرِيشًا وَإِنَّ قَرِيشًا لَوْمَ تَكُونُ عَدْتُمْ
أَذْلَةً كَمَا كُنْتُمْ) فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : (أَمَا مَا ذَكَرْتَ مِنْ قَرِيشٍ فَإِنَّهَا

لم تكن أكثـر العـرب ولا أمنـعـها فـي الجـاهـلـية فـتخـوـفـنـا). ولـما يـئـسـ منـهـمـ كـتـبـ إـلـىـ عـمـانـ : (إـنـهـ قـدـمـ عـلـىـ قـومـ اـيـسـتـ لـهـمـ عـقـولـ وـلـأـدـيـانـ ، أـنـقـلـهـمـ الإـسـلـامـ وـأـضـجـرـهـمـ الـعـدـلـ ، لـاـ يـرـيـدـونـ اللـهـ بـشـىـءـ ، وـلـاـ يـتـكـالـمـونـ بـحـجـةـ . إـنـاـ هـمـ الـفـتـنـةـ فـاـنـهـ سـعـيـدـاـ وـمـنـ قـبـلـهـ عـنـهـمـ ، فـإـنـهـمـ لـيـسـوـاـ أـكـثـرـ مـنـ شـغـبـ أـوـ نـكـيرـ).

خرج أـصـحـابـ هـذـهـ الرـؤـوسـ المـمـتـلـئـةـ بـالـعـنـادـ مـنـ دـمـشـقـ ، وـوـلـواـ وـجـوهـهـمـ شـطـرـ الـجـزـيـرـةـ فـيـ شـمـالـ الـعـرـاقـ ، فـسـمـعـ بـهـمـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ خـالـدـ اـبـنـ الـوـلـيدـ وـكـانـ أـمـيـراـ عـلـىـ حـصـنـ فـأـخـضـرـهـ وـقـالـ لـهـمـ : لـاـ مـرـحـبـاـ بـكـمـ وـلـاـ أـهـلـاـ . قـدـ رـجـعـ الشـيـطـانـ مـحـسـورـاـ وـأـتـمـ بـعـدـ فـيـ نـشـاطـ ، خـسـرـ وـالـلـهـ عـبـدـ الرـحـمـنـ إـنـ لـمـ يـؤـدـبـكـمـ حـتـىـ يـحـسـرـكـمـ ، أـنـاـ بـنـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيدـ ، أـنـاـ بـنـ مـنـ عـجـمـتـهـ الـعـاجـمـاتـ ، أـنـاـ بـنـ فـاقـ، الـرـدـةـ ، ثـمـ أـقـامـهـمـ شـهـرـاـ كـلـمـارـكـ أـمـشـاـهـ قـائـلاـ : مـالـكـ يـاـ صـحـصـعـةـ لـاـ تـقـولـ مـاـ بـلـغـنـىـ أـنـكـ قـلـتـ لـسـعـيـدـ وـمـعـاوـيـةـ ؟ فـيـقـولـ وـيـقـولـ أـصـحـابـهـ : تـوـبـ إـلـىـ اللـهـ ، أـقـلـنـاـ أـقـلـكـ اللـهـ . فـاـ زـالـواـ بـهـ حـتـىـ قـالـ : تـابـ اللـهـ عـلـيـكـمـ . ثـمـ عـفـاـ عـنـهـمـ عـمـانـ فـعـادـوـاـ إـلـىـ الـكـوـفـةـ وـأـطـلـقـوـاـ أـسـتـهـمـ فـيـ سـبـ مـعـاوـيـةـ وـسـعـيـدـ وـعـمـانـ فـلـمـ ضـاقـ بـهـمـ سـعـيـدـ ذـرـعـاـ أـخـرـجـهـمـ مـنـ الـكـوـفـةـ وـذـهـبـ لـيـحـجـ معـ الـخـلـيـفـةـ سـنـةـ ٣٤ـ هـ .

وـإـنـ مـاـ صـنـعـهـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيدـ نـمـوذـجـ كـانـ يـحـبـ أـنـ يـحـتـذـىـ فـيـ مـعـاـمـلـةـ الدـاعـيـنـ إـلـىـ التـأـلـيـبـ عـلـىـ عـمـانـ ، بـلـ كـانـ يـحـبـ أـنـ يـسـيرـ عـلـىـ مـشـلـ هـذـاـ عـمـانـ وـوـلـاتـهـ وـبـخـاصـةـ فـيـ هـذـاـ الـوقـتـ ، وـقـتـ الـخـطـرـ وـالـتـحـفـزـ لـلـثـورـةـ . وـنـحـنـ نـرـىـ أـنـ الـأـمـ قـاطـبـةـ فـيـ عـصـرـنـاـ الـحـاضـرـ تـلـعـنـ

الأحكام العرفية في أوقات الخطر؛ ذلك أن العامة حين يثور ثائرهم يتبعون أول داع من غير تمييز بين حق وباطل كما شرحتنا ذلك في وصف (الحياة الاجتماعية في عهد عثمان)؛ ولكن لين عثمان وبعده عن الإيذاء وميله إلى المساومة بالقدر المفرط ولو تعرض هو للهلاك أدى كل ذلك إلى اضمهلال سلطانه وسلطان أمرائه واستهانة الناقمين بقوة الحكومة.

البصرة :

كان عبد الله بن عامر من بني أمية أيضاً أميراً على البصرة، وكان يسير في الناس بالعدل ولم ينفعه عليه المدحوه فيها إلا عبد الله بن سبأ الذي سنووضح أمره. فقد نبهت دعوته الناس إلى التبرم بعثمان ووجهت أذهانهم إلى عقد أواصر الفتنة وتكوين ثورة تنتظم المشاغبين والناقمين وتكتير العدد من الأمسكار الثلاثة وتوجيه جو عليهم إلى المدينة حتى أخذت الثورة طريقها إلىغاية السيئة.

تحديد أسباب الاتقاض على عثمان

(رضي الله عنه)

يرجع انتقاض المسلمين على عثمان رضي الله عنه إلى طائفة من الأسباب نجملها فيما يأتي :

١ — دعوة ابن سبأ وانتراكيه أبي ذر الغفارى

الدعوات المدama للحكومات إنما تنشط عند عدم الـكترات بسلطان ذوى السلطان ، ولقد كفل الإسلام للناس حرية الرأى ، وكفل عثمان لهم الأم من جانبه ، فهو يعفو عنهم أسماء ويأخذ الولاة بالرفق بالناس . فاستغل الطاعون صراحة الإسلام ورفق عثمان ، وأطلقوا في الجو مقاالتهم الخبيثة فتولد عنها التبرم بالدولة والانتقاض على الحكام ، وعجيب أمر الطبيعة البشرية لا يسير الإنسان قدما إلا حين يخاف ، ومصدر الخوف عوامل كثيرة ؛ فقد يكون سوط الدين يسوق الإنسان فينبرى إلى غايته . أما الحاكم الرفيق الطيب النفس فأمره موكل إلى حظه ، إن شاءت الريح صارت رخاء فاستراح . أو صارت زرعا فاضطرب أمره وتناثر حبله فلا يستطيع أن يجمع المنتشر منه .

والعوامل المناهضة للحكومات إنما تتولد من طبيعة الأشياء ، فتشتد شيئاً ضئيلاً هيناً في غشاء من الحيطة والحذر والدهاء . ولا يزال يتشكل ويدور في طبيعته حتى يستوى وينخرج إلى الدنيا مارداً جباراً لا يعرف حدود الشرائع والقوانين ولا يقبل المنطق ولا يستسيغه .

رجل يهودي تشاء المصادفات الغريبة ألا يدخل في الدين الإسلامي
إلا حينما بدأ الناس يتذمرون من عثمان وولاة عثمان . أهى مصادفة
حقاً أم جماعة سرية تضمر الكيد للإسلام فتحضر هذا الرجل
للالنتقام ليهود يثرب وما صنع بهم الإسلام . وأشد النكارة بالإسلام
والمسالمين تفرق الناس عن الخليفة عثمان رضى الله عنه .

رأى عبد الله بن سبأ في كثير من الناس ميلاً على فأخذ يدعو
خلافة على ، ولكن في ثوب من الحماسة الدينية المؤثرة . اخترط بأهل
البصرة ، فقال لهم : عجيت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة
محمد . عجباً لكم أيها المسلمين ، يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يقصون
عن أمركم (يريد عليهما) إن الله ألف نبي ، وإن لكل نبي وصيماً ، وإن
عليها وصي النبي . فإذا اجتمع عليه العامة وأشباه العامة من الذين
لا يعرفون من الدين إلا قليلاً والذين لا تستطيع عقولهم أن تنقض قوله ،
تأثرت بهذا الأسلوب العجيب الذي ينتهي إلى وجوب تنصيب على
بالشورة على عثمان وولاة عثمان . إذا فالناس في حل من ييعة عثمان لأنها
جاءت من أولها باطلة ، وما كان لأحد في رأيه أن يكون خليفة بعد
الرسول عليه السلام سوى على رضى الله عنه ، فنشأ من هذا الرأى
غلاة الشيعة ، ثم ينتقل هذا الرجل إلى السياسة الداخلية فيدعو الناس
إلى الطعن في تصرفات الحكم ، فالتفت حوله العامة وكاد يحدث
ثورة في البصرة ، فاستدعاه حاكها عبد الله بن عامر وسأله : من أنت ؟
فقال رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام ورغب في جوارك ،

فقال ابن عامر : ما يبلغني عنك ؟ فاخبر عنى ، خرج إلى الكوفة يبحث
دعته ، ثم إلى الشام . ويظهر لنا من قول ابن سبأ لابن عامر أنه يريد
أن يتحصن بالإسلام لتكون له حقوق المسلمين في نقد أحوالهم والتغلغل
في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يدعى . وقد رغب في جوار
الأمير لا رضا بحكمه ، بل رغبة في التشريع عليه وعلى عثمان فلم يسع
ابن عامر إلا طرده ؛ ولكن بعد أن شغل العقول في البصرة وهياها
لفرضين : أحدهما ديني وهو خلافة على وصي الرسول ، والثاني سياسى
وهو الطعن في عثمان وولاته ، وفي ذلك هدم الدولة من أساسها ،
ويظهر لنا أن ولادة عثمان كانوا مكتوفي الأيدي لا يستطيعون التصرف
في مثل هذا الأمر الخطير تأسياً بعثمان في التسامح وترك الأمور تجري
في أعنتها ، أو كما يقول عثمان : إنما نمسك الأمور ما استمسكت .
فإذا حط هذا الداعية رحاله في الشام وجد الناس راضين بمعاوية
والامور سائرة في هدوء وطاعة ، فلم يئس ولم يتوان أن ينفذ إلى غرضه
بأساليب مختلفة .

وهذا أبو ذر الغفارى صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو
الأغنياء إلى النزول عن أموالهم للفقراء ويتلو على الناس قوله تعالى :
(والذين يُكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم
بعذاب أليم يوم يحمى عليهم في نار جهنم فتُكوى بهاجباهم وجنوبيهم
وظهورهم هذا ما كنتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تُكنزون) .
فيضطراب أمر العامة وينتقدون الخاصة من أهل السلطان وأرباب

الثراء، يتهمونهم بالطمع والجشع وتنكب سبيل الإسلام. عند ذلك يجد ابن سبأ منفذا إلى هذا الشيخ الزاهد في عرض الدنيا فينشر آرائه في مجلسه ويغيريه بالحكومة ويحرضه على الأغنياء. وصار يقول له : يا أبا ذر ألا تعجب لمعاوية يقول : المال مال الله ألا كل شيء لله ، كأنه يريد أن يتحجنه دون المسلمين ويبحو باسم المسلمين . ظل أبو ذر يدعوه إلى الاشتراكية المنطرفة بإرغام الأغنياء أن يساعدوا الفقراء ويتركوا أموالهم لهم . واتخذ بر الإسلام بالفقراء سبيلاً إلى ذهب المال من أربابه ، وما قصد الإسلام هذا بل كما قال الله تعالى : (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) زيادة على الزكاة الشرعية . أما معاوية فأراد أن يجرب دهاءه مع أبي ذر فأرسل إليه في خفية ألف دينار، ثم أوعز إلى الرسول في الصباح ليسترد لها منه معتذراً بأن المقصود بها كان غيره ، فلم يجد منها ديناراً بل وزعها أبو ذر على الفقراء ، فلم أن الرجل جاد في دعوته ، فلم يسع معاوية إلا أن يعمل على إرضائه بتسميته مال الدولة مال المسلمين ، وإذا فلما سلموا أن يرجعوا على الدولة فيما يحتاجون ، ثم بحثوا عنمن هييج أبا ذر بهذه الشدة فوجدوه ابن سبأ فامسكوه وأتوا به إلى معاوية فطرده من الشام ، خطط الحال في مصر فوجد فيها الظروف مواتية فأذاع في الناس تعاليمه قائلاً : العجب من يزعم أن عيسى يرجع ويكذب أن محمدًا يرجع والله تعالى يقول : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) محمد سيرجع كما يرجع عيسى . ثم قال : محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء ومن

أظلم من لم يحز وصية رسول الله ، إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، وهذا وصى رسول الله فانهضوا في هذا الأمر وحرکوه وابدووا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستمیلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر .

ووجد عبد الله بن سبأ في مصر مرتعاً خصيباً وهو عربي من اليهود المين ، قرأ كثيراً في التوراة وخلط تعاليمها بالقرآن وتأنق ماشاء ، ثم اشتد في دعوته وتبعه خلق كثير ، فعمل مركزه مصر يرسل منها رسلاً وكتبه إلى أشياعه في العراق وهو لاء يكتابون غيرهم وهكذا حتى بلغ عثمان عدم رضا الناس عن ولاته ، وهنالك أخذت الثورة ترفع رأسها وتسوق الناس إلى الخطأ ، وقد ظهر بعد ذلك أن الثوار عند ما ذهبوا إلى المدينة كان معهم ابن سبأ يدبر لهم الخبط ويرسم لهم سبيلاً الفتنة .

أما أبوذر فقد استمر في دعوته بالشام يجمع الناس من حين إلى حين ويقول : يا معاشر الأغنياء واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله عسكار من نار تكون بها جبارتهم وجذبهم وظهورهم . فما زال كذلك حتى كاد الفقراء يثورون على الأغنياء ، ولما صاق به معاوية ذرعاً كتب إلى عثمان بذلك فكتب إليه عثمان : إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها فلم يبق إلا أن تثبت ، فلا تنكأ القرح وجهز أباذر إلى وابعث معه دليلاً وزوده وارفق به وكفلكف الناس ونفسك ما استطعت ، فلما قدم أبوذر المدينة قال له عثمان : ما لأهل الشام يشكون ذرتك ؟ فقال : إنه لا ينبغي أن يقال مال الله ، ولا ينبغي

للأغنياء أن يقتتوا مالا . فقال عثمان : يا أبا ذر علىَّ أن أقضى ما علىَّ ، وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوه إلى الاجتهد والاقتصاد . قال : أفتاذن لي في الخروج فإن المدينة ليست لي بدار ؟ نخرج إلى الربَّدة نخط بها مسجداً وأقطعه عثمان قطعة من الإبل وأجرى عليه عطاها حتى مات .

ولا شك أن دعوة أبي ذر كانت رد فعل لما ظهر على أعيان الصحابة من واسع الغنى كما بينا في الفصل السابق ، والظروف على عهد عثمان جرأت أمثال ابن سبأ أن يكيدوا للإسلام أممأعين الحكم ، واستطاع ابن سبأ الذي ليس له في الإسلام سابقة ولا فضل أن يزعزع الدولة من أطرافها وهو حر طليق ، ولم يفكر واحد من الحكماء في البصرة والكوفة ودمشق ومصر أن يقبض عليه ويبحث ما وراءه من أسرار وما يكتنفه من أغراض سيئة .

ولئن جاز لأبي ذر أن ينتقد البذخ والترف وكثرة اكتناز الأموال ، لا يجوز أن يرغم الناس على انتزاع ما ملكت أيديهم . وهكذا اجتمع الخبيث والطيب : عبد الله بن سبأ وأبو ذر الغفارى ، وعمل كلاهما على إفساد النفوس وإيغار الصدور فتضافر دعاهما في الأمصار والمدينة على الخروج على سلطان الخليفة ، وأدى الأمر إلى إلقاء التبعية كلهما على الخليفة عثمان . كل ذلك وعلى رضى الله عنه في المدينة لا يدرى ما يعمل باسمه ابن سبأ ولا يعرفه من قبل .

٢ - المنافسة بين ذری السبئ و سائر العرب

كان عمر رضي الله عنه بشاقب رأيه قد منع القرشيين وكبار المهاجرين من الخروج إلى الأقاليم خشية أن تكون الأمصار الجديدة حقولاً خصيبة تنمو فيها العصبية وتعود الحمية الجاهلية سيرتها الأولى فتتنافس العشائر وتجاذب كبارها ولاده المسلمين . فتصاب الوحدة العربية التي أسس الإسلام قواعدها بتصدع يخز لـه بنيانها ويأثـي على قواعدهـا .

ولقد كان عمر في ذلك شديداً قاسياً حتى إن الرجل من المهاجرين ليستأذـنه في الغزو فلا يأذـن له ويقول : قد كان لكـ في غزوـكـ مع رسول الله صـلـواتـ اللهـ وـسـلـامـهـ عـلـيـهـ ماـ يـلـغـكـ وـخـيرـ لكـ منـ الغـزوـ وـالـآـتـرـىـ الدـنـيـاـ ولاـ تـرـاـكـ .

ولما أقيمت مقايد الأمور إلى عثمان فـكـ قـيـودـ الـهـجـرـةـ مـنـ الـمـدـيـنـةـ ، وـخـلـىـ السـبـيلـ لـمـ يـبـغـيـ مـغـادـرـتـهـ . ولـقـدـ كـانـ ذـلـكـ رـأـيـاـ أـذـاءـ إـلـيـهـ اـجـتـهـادـهـ ؛ إـذـ حـسـبـ مـنـ يـذـهـبـ إـلـىـ الـأـمـصـارـ مـنـ كـبـارـ قـرـيـشـ أـعـواـنـاـ يـدـفـعـ بـهـمـ عـوـادـيـ الـفـتـنـ عـنـ الـمـسـلـمـينـ فـتـلـكـ الـأـمـصـارـ ، وـلـكـنـ الـحـوـادـثـ دـلـتـ عـلـىـ أـنـ إـخـلـاءـ السـبـيلـ لـأـعـلـامـ قـرـيـشـ بـالـمـدـيـنـةـ أـنـ يـسـيـحـوـاـ فـيـ الـأـرـضـ وـيـقـيمـوـاـ حـيـثـ يـشـاءـونـ — كـانـ مـنـ الـعـوـافـلـ الـتـيـ سـاعـدـتـ عـلـىـ اـنـتـشـارـ الـفـتـنـ وـشـدـ أـزـرـهـ ، إـذـ كـانـتـ فـيـهـمـ جـرـأـةـ عـلـىـ الـحـكـامـ وـاعـتـزاـزـ بـعـاـطـهـمـ مـنـ سـابـقـةـ وـصـحبـةـ وـنـسـبـ ، فـالـتـفـ حـولـهـمـ كـثـيرـ مـنـ الـعـامـةـ وـانـقـطـعـوـاـ إـلـيـهـمـ مـعـقـدـيـنـ أـنـ لـادـهـ النـاسـ قـدـ تـكـونـ فـيـهـمـ وـتـؤـولـ إـلـيـهـمـ فـيـجـدـوـنـ أـنـفـسـهـمـ إـذـ ذـاكـ قـدـ سـبـقـوـاـ غـيـرـهـمـ فـيـ مـعـرـفـةـ هـوـلـاـ ، الـوـلـاـةـ وـالـتـقـرـبـ مـنـهـمـ ، فـكـانـ

انقطاع الناس إلى هؤلاء المهاجرين من المدينة سبيلاً إلى إحياء ما أ Mataه
الإسلام من تكوين الأحزاب والتفاصل بالعصبيات.

وطبعى أن ذلك لا يكون إذا هم بقوا بالمدينة وحجزوا عن السير في
الأرض ، إذ أن المدينة ضيقـة المجال لا تتسع لمؤامرة يقصد بها تعكـير
جو الخلافـة . أما الأمصار فيها كثـير من العامة الذين يتـالمـكون على
التقرب من هؤلاء القرشـيين المهاجريـن ويـتـدافـعون على أبوابـهم ، دعـ
عنـكـ أنـ الـواحدـ منـ هـؤـلـاءـ النـازـحـينـ منـ المـديـنـةـ لمـ يـكـنـ مـديـنـاـ لـغـيرـهـ
بـفـضـلـ وـلـاـ مـسـتـكـيـنـاـ لـسـوـاهـ ، وـرـبـعـ رـأـيـ أـنـ أـجـدـرـ بـالـإـمـارـةـ مـنـ أـمـيرـهـ ،
وـهـذـاـ مـنـ غـيرـ شـكـ وـهـنـ أـصـابـ الجـمـاعـةـ وـرـجـوعـ إـلـىـ حـدـيـثـ الجـاهـلـيـةـ ،
فـرـقـ شـمـلـ الـأـمـةـ وـنـقـضـ غـزـلـهـاـ وـأـطـلـقـ لـسانـ الـعـامـةـ فـيـ الـوـلـاـةـ دـوـنـ تـحـرجـ
أـوـ خـشـيـةـ ، فـقـدـ روـيـ أـنـ أـبـاـ ذـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ كـانـ يـقـولـ بـالـشـامـ : «ـ وـالـلـهـ
لـقـدـ حدـثـتـ أـعـمـالـ مـاـ أـعـرـفـهـاـ وـالـلـهـ مـاـ هـىـ فـيـ كـيـتـابـ اللـهـ وـلـاـ سـنـةـ نـبـيـهـ صـلـىـ
الـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ . وـالـلـهـ إـنـىـ لـأـرـىـ حـقـاـ يـطـفـاـ وـبـاطـلـاـ يـحـيـاـ وـصـادـقـاـ مـكـذـبـاـ
وـأـثـرـةـ بـغـيرـ تـقـىـ ، وـصـاحـبـاـ مـسـتـأـثـرـاـ عـلـيـهـ ». .

٣ - لـيـنـ عـمـانـ وـتـسـاحـ

كان عـمـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ لـيـنـاـ رـفـيـقـاـ سـهـلـاـ ، وـلـمـ يـكـنـ رـجـلـ عـنـفـ وـشـدـةـ ،
وـهـذـاـ كـانـ يـفـرـ منـ معـاجـلـةـ الـأـمـورـ بـعـاـ تـقـضـيـهـ مـنـ ضـرـوبـ الـقـسـوـةـ جـبـاـ
فـيـ الـعـافـيـةـ وـالـسـلـامـةـ ، وـكـانـ يـؤـثـرـ دـائـماـ أـنـ تـصـلـحـ الـأـمـورـ بـالـلـيـنـ وـالـحـسـنـيـ ،
وـتـلـكـ خـطـةـ لـاـ تـحـمـدـ فـيـ الـوـلـاـةـ ، وـمـنـ يـدـهـمـ أـمـرـ الـجـمـاعـةـ ، إـذـ كـثـيرـ مـنـ

أمور الأمة لا يحدي فيها إلا الاعتصام بالشدة ، فلو أن عثمان أخذ العصاة بها وضرب على أيدي موقدى نار الفتنة حينما بدأت تطلع ألسنتها ، وقطع أسباب الشكوى لنجا ونجا معه المسلمين ولم يصبهم ما أصابهم ؛ ولكنك أنه كان يؤثر العافية مهما كانت مغبتها ، ولقد جمع الولاة ليذلوا بما يرونه في معالجة الأمر فلم ينزل على رأى أحد منهم ، ولم يأخذ برأى عبد الله بن عامر الذى أشار بخشش الناس فى المغازى حتى يذلوا ولا يكون لهم الواحد إلا نفسه ، كما لم يأخذ برأى سعيد بن العاص الذى طلب إليه أن ينكل برؤوس الفتنة وقادتها ، ولقد كان كلامه لهم بعد أن أدى كل برأيه : « قد سمعت كل ما أشرتم به ، ولكل أمر باب يؤتى منه . إن هذا الأمر الذى يخاف منه على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذى يغلق عليه ليفتح فنكفة كفه باللين إلا في حدود الله ، فإن فتح فلا يكون لأحد على حجية ، وقد علم الله أنى لم آل الناس خيراً وإن رحى الفتنة دائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها ، سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم ، فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تذهبوا » .

ولقد نزل على رأى مفسدى الكوفة فولى من يريدون وكتب إليهم كتاباً إن دل على شيء فهو ضعفه وخروج الأمر من يده قال :

« أما بعد فقد وليت عليكم من اخترتم ، وأعفيتكم من سعيد والله لا أقرضنكم عرضي ولا بذان لكم صبرى ، ولا تستصلحنكم بجهدى ، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألكموه ،

وَلَا شَيْئاً كَرِهُتُمُوهُ لَا يَعْصِي اللَّهُ فِيهِ إِلَّا اسْتَعْفَفْتُمُوهُ مِنْهُ، أَنْزَلَ فِيهِ عِنْدَمَا أَحِبْتُمُوهُ حَتَّى لَا يَكُونَ لَكُمْ عَلَىٰ حِجَةً» .

وقد وجه مثل هذا الكتاب إلى الأمصار، وتلك حال إن أثرت في الكرام وهم قليل فهى من أقوى العوامل على ترد اللثام وهم كثير.

هذه سياسة الذين التي اتهجها عثمان لنفسه والتي أذهبت هيبة الخلافة من القلوب، وأين تلک من حزم عمر وشدة وضربه على أيدي المتعالين في الأمة، وهذا موقفه من سعد بن أبي وقاص صاحب وقعة القادسية: لقد اعتذر سعد بمنزلته، وخاض غمار الجماعة التي أحاطت بعمر فتصدع جمهم وتخطأهم ليصل إلى عمر قبلهم غير متظر دوره، ولكن عمر ضربه بدرته قائلًا: «جئت لا تهاب سلطان الله في أرضه، فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك» لهذا مضت أيام عمر أفقها صحو لم يلبد بغيم الفتنة وعوامل الاضطراب.

٤ - رکود مرکز الغزو :

فترت حركة الجهاد أيام عثمان فاستقر في الأمصار المجاهدون من سائر العرب ومن لهم في الغزو قدم.

تطلع هؤلاء إلى مناصب الدولة لأنهم يرون آثارهم في الفتوح وأيديهم على الإسلام بادية، وهم مع هذا يقولون: إن أولى الناس بأن يكونوا عضد الخليفة في سياسة الناس وولاية الأمصار من كان لهم قدم صدق في نشر الإسلام ورفع لوائه من كبار الصحابة والماهرين وذوى السابقة.

أَنف هُؤلَاءِ مَنْ أَنْ تُحْتَجِنْ | وَالْيَةُ الْبَلَادُ وَأَمْثَالُهَا دُونُهُمْ ، وَيُخَصُّ بِهَا
سَوَاهُمْ مَمْنُ لَا يَصْلُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ وَلَا يَجَارُونَهُمْ فِي مَزَایِّهِمْ ، فَأَخْذُوا
يُكَيِّلُونَ لَوْلَةَ عَمَانَ التَّهْمَمْ وَيُعَيِّبُونَ اخْتِيَارَهِ إِيَاهُمْ وَإِغْضَاءَهِ عَمَّا يَبْلُغُهُ عَنْهُمْ
مِنْ ظُلْمٍ وَعَدْوَانَ .

وَمَا جَعَلَ لَهُذِهِ الْجَمَلَةِ الشَّعُوَاءَ أَثْرًا سِيَّئًا أَنْ أَنْبَاءَهَا وَقَعَتْ مَوْقِعَ
صَدْقٍ وَقَبْوِلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ فَجَعَلُوا
يُنَقِّمُونَ عَلَى عَمَانٍ إِبْقَاءَ هُؤُلَاءِ الْوَلَّةِ وَعَدْمِ مَوْاخِذِهِمْ وَعَزْلِهِمْ .
كَانَ ذَلِكَ كَلَهُ أَثْرًا مِنْ آثارِ اِنْصَارَافِ النَّاسِ عَنِ الْجَهَادِ ، فَاتَّجَهُتْ
الْأَحَادِيثُ فِي الْحَرُوبِ وَمَوَاقِعِهَا وَالْاستِعْدَادُ لَهَا إِلَى الْعَمَالِ وَالْوَلَّةِ
وَرَمِيمِهِمْ بِعَامِهِمْ بِرِيَّهُمْ مِنْ أَكْثَرِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَلَهُ .

وَلَقَدْ أَحْسَنَ عَامِلُ الْبَصَرَةِ وَالْبَحْرَيْنِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرَ حَاجَةَ الْأَمَّةِ
إِلَى الْغَزوَ وَالْجَهَادِ حَتَّى يُشَغِّلَ النَّاسُ عَنْ تِلْكَ الْفَقْتَةِ وَلَا تَكُونَ هَمَّةً
أَحَدُهُمْ إِلَّا نَفْسُهُ فَأَشَارَ عَلَى عَمَانَ بِذَلِكَ وَلَكِنْ لَمْ يَرِضْ .

وَلَا تَنْسِ هَنَا أَنَّ الْخَلِيفَةَ كَانَ خَاصِّعًا لِمَيْوَلِ الرَّأْيِ الْعَامِ لَا يَبْرُمُ أَمْرًا
حَتَّى يُعَرِّضَهُ عَلَى بَسَاطِ الْبَحْثِ مُسْتَشِيرًا كُبَارَ الْبَارِزَيْنِ مَمْنُ حَوْلِهِ . وَتِلْكَ
خَطْطَةُ اِنْتِهِجَهَا عَمَالُهُ وَحَذَنُوا فِيهَا حَذْوَ الْخَلِيفَةِ ، فَفَتَحَتِ الْأَبْوَابِ
وَأَوْسَعَتِ الْمَحَالِ لِكَثِيرٍ مِنِ الشَّغْبِ ؟ وَتَبَرَّمُ الْكَثِيرُونَ بِالْحُكْمِ الَّذِي
لَا يَتَفَقَّ وَأَغْرِيَهُمْ .

اتَّقَدَتْ نِيرَانُ الْغَيْرَةِ فِي بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ فَأَخْذُوا يَعْلَمُونَ حَقَّ
عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَيُكَيِّدُونَ لِبَنِي أُمَّيَّةِ الَّذِينَ مِنْهُمْ الْخَلِيفَةُ عَمَانُ .

وما كان بعسر عليهم أن يشهروا بهم لاستقطابهم ، إذ كان بنو أمية آخر من آمن ، وكان من أدناهم عثمان منه ، وخصهم بعطفه من أوائل الذين ناووا الإسلام وحاربوه أول ما بدا ، فذكر الناس ما قاله الرسول في هؤلاء واتخذوا من هذا القول سلاحاً يطعنونهم به ، فضفت في الناس الثقة بالحكومة وانصدت قريش وضعف نفوذها بانقسامها ، ففقد الخليفة قوة يستطيع أن يقضى بها على ما غمر الأمصار من التبرم والتذمر والفساد .

٥ - مب عثمانه لأقاربه

اشتهر عثمان بحبه لأقربائه وبره بهم فولى كثيراً منهم الأمصار على [حداثة أسنانهم وتخلفهم عن غيرهم في المزية وجود من يفضلهم سنًا وسابقة ، وقد لا يكون في ذلك من بأس ، لأن عثمان أنس من أقربائه الإخلاص وصدق المعونة ، ولأن منهم من أبلى بلاء حسناً في فتوح الفرس وأفريقيا ، ولكثير منهم كفاية ذاتية ، ولأنه قد ولى منهم قبله الرسول صلى الله عليه وسلم والخليفتان من بعده ، يدل على ذلك قوله لعلي بن أبي طالب وهو يحاوره في أمرهم ويعيب عليه خطته فيهم : « أما والله لو كنت مكانى ما عنتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك ، ولا جئت منكراً إن وصلت رجماً وسدلت خلة وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بن كان عمر يولي . ألم يول عمر المغيرة بن شعبة وهو نسيبه ؟ فلم تلومني إن وليت عبد الله بن عامر في رسمه وقرابته ؟ »

غير أن ما يؤخذ على عثمان في أمر أقربائه مبالغته في الثقة بهم حتى
خصهم بعشورته ووثق بن لا يستحق الثقة منهم ناسياً طبائع الناس
وما جبلوا عليه من الغيرة وحب الذات والنفور من مجانبة المساواة التي
أقرها الإسلام ونرج عليها الخليفتان قبله .

لقد كان قصر مشورته على أقربائه منفرأً عظاماء الصحابة كطلاحة
وسعد بن أبي وقاص وعائشة وغيرهم ممن كان عمر بن الخطاب لا يتعداهم
ولا يغفلهم ، بل كان يجمع سكان المدينة لاستشارتهم جميعهم في
الأمور الخطيرة .

كيف يدع الاستعانة بأمثال هؤلاء ويولى عبد الله بن سعد الذي
آمن ثم كفر ثم كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وادعى أنه
لبس على المسلمين دينهم إذ كان يكتب القرآن بخلاف ما كان يأمره به
الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فهذا يتبع أفينسى الناس له هذا ويعترفون
له بحق الولاية عليهم ؟

لقد كانت سلامة فطرة الخليفة ونقاء ضميره وطهارة نفسه من
عوامل حسن الظن بالناس ، وبخاصة أقرباؤه الذين أحبوه جماً
فلل寇وا عليه حواسه فرُكِنَ إِلَيْهِمْ وَأَوْلَاهُمْ ثُقَّتُهُ التَّامَّةُ يَسْتَشِيرُهُمْ وَيَسْتَنْصِرُهُمْ
في الرأي وتدبير الأمر ، فأحافظ بذلك القلوب وجراً عليه الناس ، فرمي
باتقصير ومحابية العدل سراً وإعلاناً وأنزل بالأمة شرًّاً مستطيراً فزقها
أحوج ما تكون إلى جمع الكلمة والتفرغ لتدبير تلك الأقاليم المترامية
الأطراف التي لا يزال الإسلام فيها غضباً .

وإن أكثر ما ووجه إليه من اللوم إفراطه في حب أقربائه وكان ذلك
وسيلة إلى رقتهم عليهم وضعفهم أمامهم ، وهذا ما قاله على بن أبي طالب
لعمان وهو يحاوره :

« سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان إذا ول شخصاً فإنما يطأ على
رأسه ، إن بلغه عنه حرف جلبه إليه حتى بلغ به أقصى الغاية ، وأنت
لا تفعل ، ضعفت ورفقت على أقربائك »

ولهذا كان عمال عمر يخافونه خوفاً عظيماً . وعلى العكس من ذلك
عمال عثمان . قال على بن أبي طالب لعمان : « أنسدك الله هل تعلم أن
معاوية كان يخاف من عمر أكثر من خوف يرفاً خادم عمر له » . ولقد
بلغ من ضعف الخليفة أمير عمالة أن منهم من كان يبرم الأمر ويقول
للناس هذا أمر عثمان فيبلغه ذلك ولا ينكره . قال على بن أبي طالب
يخاطب عثمان : « إن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها فيقول
للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير عليه »

لا جرم أن ميل عثمان إلى أقاربه ومحاباته إياهم لم يخربا به عن حدود
الدين ولم يكن يصح أن يصلوا بالشعب إلى هذا الحد من الثورة
والانتقام على الخليفة . فهذا الوليد قريبه اتهم بشرب الخمر فلم يكتف
بعزله بل نفذ فيه حكم الله وجلده . وهذا قوله وهو يخطب بعض الوفود
المعترضة عليه : « وقالوا إني أحب أهل بيتي وأعطيهم : فاما حبي فإنه
لم يعل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم »

ولقد تحاكم إلى الحقائق التاريخية المجردة لترينا أن عثمان لم يكن

مسلكه في إسناد المناصب إلى أقربائه مما يلأ القلوب حنقًا وغيظًا
ويحمل الشعب على أن يخرج عليه ذلك الخروج الذي أدى إلى تملك
الفجيعة الإسلامية بقتله.

كان معاوية حاكم الشام أحد أقارب عثمان إلا أنه عين في عهد عمر
ثم استمر في حكمه في عهد عثمان. أما النزاع في شأن ولاية الكوفة
فكلنا نعلم أن سعداً (فاتح بلاد الفرس) عين حاكماً على تلك البلاد
في عهد عمر، ثم استدعاه من جراء شكوى هينة وجعل المغيرة
خلفاً له وقد أبدى عمر وهو على فراش الموت رغبته في إعادة سعد إلى
منصبه. ومن أجل ذلك أعاده عثمان إلى الحكم مرة ثانية واستدعي المغيرة،
ومما يؤسف له أن حدث نزاع بين سعد الحاكم وابن مسعود خازن بيت
المال في الكوفة، وذلك أن سعداً افترض من بيت المال، ولما حان
الأجل طلب إليه ابن مسعود أن يؤدي إلى بيت المال ما افترضه، ولكن
سعداً لم يتيسر له إذ ذاك دفعه فاشتد بينهما النزاع واحتدم الجدال فكان
ذلك سبباً في توتر العلاقات بينها وفي انقسام الكوفة قسمين أحدهما
يعيب على سعد إبطاءه، والآخر ينكر على ابن مسعود قسوته وشدة تهـ،
فغضب عثمان لذلك وعزل سعداً وجعل الوليد بن عقبة خلفاً له وهو
أحد أقاربه من جهة أمـه، ومن المسلم به أن الوليد هذا عين سنة ٢٥
هجرية وهي السنة الأولى من حكم عثمان.

وقد أجمع الناقدون والمؤرخون على أنه لم يقع منه خلال ست
السنوات الأولى ما يسوعن توجيه النقد إليه؛ إذ كانوا يرون رائده تحريـ

المصلحة العامة وإسناد المناصب إلى الجديرين بها لا فرق بين
قريب وبعيد .

وها نحن أولاء قد علمنا أنه لما اتهم الوليد بشرب الخمر عزله وجلده .
أضف إلى ذلك أنه لما ولى مكانه سعيد بن العاص قريبه ولم يحسن
سياسة أهل العراق وطلبوه عزله أجابهم إلى طلبهم وعين في مكانه
أبا موسى الأشعري .

وأما تعينه عبد الله بن سعد حاكماً ببصرى بدلاً من عمرو بن العاص
فشفيعه في ذلك ما بلغه عن عمرو ومن الخروج عن جادة الطريق المستقيم
وما كان عليه عبد الله من رجاحة عقل وشجاعة نادرة ظهرت في انتصاراته
بأفريقية وفي بلائه الحسن في تكوين أسطول قوى للمسلمين ، ومع
هذا فإن المcriين لما تألبوا على عبد الله بن سعد وطلبوه عزله لم يتمسك
به عثمان وعين بدلـه محمد بن أبي بكر .

من ذلك يتبيـن أن عثمان سلك مسلكـه هذا في تعين أقاربه لا عن
محاباة ولكن لـكفايتـهم واطمئنانـه إلى جانبـهم بـدـليل أنه لم يـتردد في عـزل
من حـامت الشـبهـة حولـه مـنهـم .

على أنـنا لا نـرى من حـرجـ في أنـ نـقولـ إنه كان الأـحـجـيـ بـعـثـانـ
رضـى اللهـ عـنـهـ أنـ يـتـبعـ خـطـةـ منـ سـبـقوـهـ فيـ إـعـرـاضـهـ كـلـ الإـعـارـضـ أوـ
أـغـلـبـهـ عنـ إـسـنـادـ المـنـاصـبـ إـلـىـ أـقـارـبـهـ وـفـيـ اـخـتـيـارـهـ الـوـلـاـةـ مـنـ غـيرـهـ مـنـ
الـمـشـهـودـ لـهـ بـالـكـفـاـيـةـ - وـهـ كـثـيـرـونـ - مـنـعـاـ لـقـالـةـ السـوـءـ وـقـضـاءـ عـلـىـ

تدابير الحاقدين والحاقدسين الذين تلمسوا في عهد عثمان أو هي الأسباب
فأشاعوا الامتعاض والتبرم بأمر الخليفة.

ولقد يخلق بالناقدين من ذوى التزاهة أن يعلموا أنه ليس من
الإنصاف - وقد مضى على عهد عثمان وصحابه ثلاثة عشر قرناً - أن يقسوا
حكمنا عليهم وقد كانوا طلائع الإسلام ودعاته تحفهم كثير من الصعاب
والمشاكل والمخاطر ، وتحوطهم ملابسات حملتهم على أن يديروا دفة
السفينة الإسلامية ويوجهوها إلى الجهة التي يرون فيها السلامة ولقد يؤيد
ما ذهبنا إليه من ضرورة التحفظ والقصد في الحكم على عثمان رعاية
لما قد أحاط به من الملابسات ، أن علياً ما لبث بعد أن تولى الخلافة حتى
اتبع سياسته بعينها ، فلم ير بأساساً من إسناد مناصب الحكم إلى أقاربه من
بني هاشم . وأغلب الظن أن الحال وقتذاك كانت تستدعي اتباع هذا
المسلك أو أن الذين اختيروا كانوا أحسن من يرجى فيهم الخير .

٦ - انحراف أهل المدينة

كان بالمدينة من المهاجرين والأنصار رجال لو أنهم آذروا عثمان
وهيوا سرعاً لنجدةه لدفعوا عند ذلك العدوان الذي أصاب الخلافة في
مقتلها ، ولكنَّ ما وصلهم من الآباء عن أعمال عثمان التي رأوا فيها
مفارة لسيرة الخلفتين في سياسة الناس وخرجا عما رسّمه الدين ، مهد
السبيل إلى ظهور العصبية الجاهلية بينهم تحت شعار مناصرة الخلافة

ووجوب إسنادها إلى من يضطلع بأعبائها ويرعاها حق رعايتها فكانوا لذلك شيئاً؛ فنهم قوم من بنى أمية مالوا إلى عثمان ومؤازرته، ومنهم قوم من بنى هاشم رأوا أنهم أحق بالخلافة فتمصبوا العلى، وقال الأنصار إن المهاجرين عامة قد سلبوهم حقهم واستولوا على الرياسات كلها دونهم.

كل ذلك كان سبباً في أن وقف أكثر أهل المدينة من عثمان موقف صمت وحياد، بل وجنح فريق منهم إلى تخي عثمان عن الخلافة وآزر الثائرين في الأقاليم فكتب إليهم: «اقدموا علينا فإن الجهاد عندنا» وتواعدوا شوال يقدمون فيه إلى المدينة مظهرين رغبة الحج.

اجتمع المترفون بالمدينة كما اتفقوا وقد اختلفت أهواؤهم فيمن يلي الخلافة بعد عثمان، فمال الكوفيون إلى الزبير والبصريون إلى طلحة والمصريون إلى علي. وذهب من كل جماعة وفد إلى من مالوا إليه وعرضوا عليه ما أرادوا فردوه ردًّا عنيفاً، ولما علم عثمان بأمرهم وسَطَّ عليهم ليصرفهم عنه وانتهى الأمر برجوعهم إلى أوطانهم.

٧ — أمور أمرى نسبت إلى عثمانه رضى الله عنه

وما أخذه الناس على عثمان أن زاد نداء آخر على أذان الجمعة بسبب كثرة المسلمين وتبعاد أطراف المدينة، وإغمامه الصلاة في مني وعرفة، وقد كان الأمر على القصر في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفيتين

من بعده وأنه جمى حول المدينة^(١) إلا عن بنى أمية، ورد الحكم بن أبي العاص طرید رسول الله صلی الله علیه وسلم إلى المدينة وأعطاه مائة ألف درهم، وأعطى ابن أبي السرح ما أفاء الله علیه، وتنازل لمروان بن الحكم عن خمس مغانم في إفريقيا، وأعطى أبا سفيان بن حرب مائة ألف درهم، وزوج الحارث بن الحكم بنته عائشة وأعطاه مائة ألف، وتطاول في البناء حتى عدوا سبع دور بناها في المدينة لزوجه ولبنته ولغيرها من أهله. وضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر ضلعا من أضلاعه، وضرب عمّار بن ياسر حتى فتق بطنـه وغشـى عليه فجردوه وطروحـه على بـاب الدـر وهو من الـذين أـوذـوا فـي مـبـدا الإـسـلام وـقال فـيـه رسول الله صـلـى اللهـ عـلـيـه وـسـلـمـ : «ـعـمـارـ مـلـىـ إـعـانـاـ مـنـ فـرـقـهـ إـلـىـ قـدـمـهـ»ـ وـنـفـيـ أـبـاـ ذـرـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـ إـلـىـ الرـَّبـذـةـ .

وهذا دفاع عثمان عن نفسه ودحض ما نسب إليه من أمثال ما ذكر؛ خطب بعض الوفود المعترضة عليه فقال:

«إن هؤلاء – يعني المعترضين – ذكرـواـ أـمـوـراًـ قدـ عـلـمـواـ مـنـهاـ مـثـلـ الذـىـ عـلـمـتـ ، إـلـاـ أـنـهـمـ زـعـمـواـ أـنـهـمـ يـذـكـرـونـهاـ لـيـوجـبـهاـ عـلـىـ عـنـدـ مـنـ لاـ يـعـلـمـ . وـقـالـواـ أـتـمـ الصـلـاـةـ فـيـ السـفـرـ وـكـانـتـ لـاـ تـمـ . . . أـلـاـ إـنـيـ قـدـمـتـ

(١) قد أنكر الناثرون على عثمان رضي الله عنه حمايته لأرض كانت للناس عامـةـ ، فـخـصـصـهاـ بـأـبـلـ الصـدـقـةـ ، ثـمـ قـرـءـواـ عـلـيـهـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : «ـقـلـ أـفـرـأـيـتـ مـاـ أـنـزـلـ اللـهـ لـكـمـ مـنـ رـزـقـ فـعـلـمـ مـنـهـ حـرـاماـ وـحـلـلاـ»ـ وـقـالـواـهـ : أـرـأـيـتـ مـاـ حـمـيـتـ مـنـ الحـمـىـ ؟ـ آـلـهـ أـذـنـ لـكـ أـمـ عـلـىـ اللـهـ تـفـتـرـىـ ؟ـ فـقـالـ : إـنـ هـذـهـ الآـيـةـ نـزـلتـ فـكـذـاـ وـكـذـاـ .ـ وـأـمـاـ الحـمـىـ فـقـدـ حـمـيـتـ الـأـمـمـ قـبـلـ إـلـىـ الصـدـقـةـ .ـ فـلـامـ زـادـتـ إـلـىـ الصـدـقـةـ زـدتـ فـالـحـمـىـ .ـ وـجـاءـ فـيـ الـبـخـارـيـ أـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ حـمـيـ النـقـيـعـ وـأـنـ عـمـرـ بـنـ الـخطـابـ حـمـيـ السـيرـفـ وـالـرـَّبـذـةـ .ـ

بِلَدًا فِيهِ أَهْلِي فَأَئْتَمْتُ أَوْ كَذَلِكَ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، وَقَالُوا: وَحَمِيتْ حَمِيَّةً
وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا حَمِيَّتْ إِلَّا كَمَا حَمَى مَنْ قَبْلِي، وَاللَّهُ مَا حَمَوْا شَيْئًا لِأَحَدٍ، مَا
حَمَوْا إِلَّا مَا غَلَبَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ثُمَّ لَمْ يَنْعُوا مِنْ رَعْيَتِهِ أَحَدًا، وَاقْتَصَرُوا
لِصَدَقَاتِ الْمُسْلِمِينَ يَحْمُونَهَا لِثَلَاثَةِ يَكُونُ بَيْنَ مَنْ يَلِيهَا وَبَيْنَ أَحَدَ تَنَازُعَ،
ثُمَّ مَا مَنَعُوا وَلَا نَحْوَاهُمْ أَحَدًا، وَمَا لَيْسَ مِنْ بَعْدِهِ غَيْرَ رَاحِلَتِينَ وَمَا لَيْسَ مِنْ
ثَاغِيَةَ وَلَا رَاغِيَةَ، وَإِنِّي قَدْ وَلَيْتَ وَإِنِّي أَكْثَرُ الْعَرَبَ بَعِيرًا وَشَاءَ فَالَّيْ
الْيَوْمِ شَاءَ وَلَا بَعِيرًا غَيْرَ بَعِيرَيْنِ لَحْجَيِي أَكَذَلِكَ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، وَقَالُوا إِنِّي
رَدَدْتُ الْحَكْمَ وَقَدْ سَيِّرْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْحَكْمَ مَكَنْ سَيِّرِهِ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَنَّهُ إِلَى الطَّائِفَ ثُمَّ رَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيِّرِهِ وَرَسُولُ اللَّهِ رَدَهُ، أَكَذَلِكَ؟
قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. وَقَالُوا اسْتَعْمَلْتَ الْأَحْدَاثَ؟ وَلَمْ أَسْتَعْمَلْ إِلَّا مَجَمِعًا مُحْتَمِلًا
مَرْضِيًّا وَهَؤُلَاءِ أَهْلِ عَمَلِهِمْ فَسَلُوْهُمْ عَنْهُمْ وَهَؤُلَاءِ أَهْلِ بَلَدِهِمْ. وَلَقَدْ
وَلَّ مِنْ قَبْلِي أَحَدُهُمْ وَقِيلَ فِي ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
أَشَدُّ مَا قِيلَ لِي فِي اسْتَعْمَالِ أَسَامِيَّةَ أَكَذَلِكَ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ وَقَالُوا إِنِّي
أَعْطَيْتُ ابْنَ أَبِي سَرْحٍ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنِّي إِنَّمَا نَفَلْتُهُ خَمْسًا مَا أَفَاءَ اللَّهُ
عَلَيْهِ مِنَ الْخَمْسِ، فَكَانَ مَائَةً أَلْفًا وَقَدْ أَنْفَذْمَشِلَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرًا وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا فَزَعَمَ الْجَنْدُ أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ ذَلِكَ فَرَدَدَهُ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ ذَلِكَ لَهُمْ،
أَكَذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. وَقَالُوا إِنِّي أَحُبُّ أَهْلَ بَيْتِي وَأَعْطَيْهِمْ، فَأَمَّا حَبِيَّ
فَإِنَّهُ لَمْ يَمْلِ مَعَهُمْ عَلَى جُورِ بَلِ أَحْمَلَ الْحَقُوقَ عَلَيْهِمْ. وَأَمَّا إِعْطَاوُهُمْ
فَإِنِّي أَعْطَيْهِمْ مِنْ مَالِي وَلَا أَسْتَحْلِ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ لِنَفْسِي وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ

الناس ، ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة من صلب مالي أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم وأنا يومئذ حريص شحيح ، أخرين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمرى ووزعت الذى لي في أهلى قال المحدثون ما قالوا ، وإن والله ما حملت على مصر من الأمسار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددهه عليهم وما قدم على إلا الأحسان ولا يحل لى منها شيء ، فتولى المسلمين وضعها في أهلهما دوني ، ولا تبلغت من مال الله بفلس فما فوقه وما أتبغ منه . ما آكل إلا من مالي ، وقالوا أعطيت الأرض رجالاً ، وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت ، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له ، فنظرت في الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعثه لهم بأمرهم من رجال أهل عقار بلاد العرب فنقلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني ^(١) .

٨ - الفتنة تحرك

كانت مصر مقر الفتنة التي أريد بها قلب الخليفة عثمان وسببت للإسلام القلق والمسلمين الاضطراب ، بثت فيها دعوة ابن سبا وشایعها أنصار آخرون من مختلف الأمسار وبخاصة البصرة والكوفة ، ولكن المدينة حاضرة الدولة سلمت من التأثير بدعوة ابن سبا ، غير أنه استطاع أن يستميل إليه اثنين من رجالها وهما محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة

(١) ص ١٠٢ ، ١٠٣ ج ٥ من ابن جرير

لحداثهما . ولما في نقوسهما من السخط على إدارة عثمان ، ولأنهما كانا قد
تشاجرا في مصر مع عاملها عبد الله بن سعد أخي الخليفة في الرضاعة .

تأثرت الأمصار بعصر ، وسايرتها في الانتقاض على عثمان فأخذت
تحين الفرص للقيام بالثورة ، من ذلك أن أهل الكوفة وجدوا في تغيب
حاكمها سعيد بن العاص وجوده عند الخليفة فرصة للقيام بحركتهم ،
فأخذوا يدعون بين الناس أن سعيداً ذهب إلى الخليفة لينقص عطاءهم ،
وليس لهم سبيل إلا أن يذهبوا إليه يتطلبون التخلص من سعيد هذا .
ويينما كان وفدهم في طريقه إلى عثمان قابلهم سعيد بن العاص راجعاً إلى
الكوفة فأبدوا نفورهم منه وقتلوا خادمه وأعلنوا رغبتهم في أبي موسى
الأشعري ، فقال عثمان قد أثبتنا أبا موسى عليهم ، والله لا يجعل لأحد
عذراً ولا ترك لهم حجة ولنصلبوا كأمرنا حتى نبلغ ما يريدون »

كان موقف عثمان إزاء هؤلاء المحرضين الشارين ضعيفاً إذ خرج
من الضرب على أيديهم ومعاقبتهم عقاباً شديداً إلى مسامتهم ومصالحتهم
بعزل سعيد وتعيين أبي موسى الأشعري خلفاً له . وعلى الرغم من أن
أبا موسى الأشعري حاول جعلهم على الولاء والإخلاص لل الخليفة فإن دعاه
السوء أخذوا يعملون على إثارة الأهلين ضده في هدوء وسکينة .

٩ - التحقيق في الظمرات : أو العاصمة تتلقى الظمرات

ازداد نفور الشوار تدريجاً واتخذوا التشهير بحكام الخليفة وتشويه
سمعتهم وإلصاق الظلم بهم وسيلة إلى تضليل الجماعات والتغريب بها

وأنسجامها في هذا التعسف . أخذ سيل الشكاوى ينحدر إلى العاصمة من البصرة والكوفة ومصر ، وعلى الرغم من مجانبته كثير منها للواقع إن لم تكن كلها فقد كانت محكمة بحيث تكفل للمتأمرين أن يظهروا بدعوتهم في صورة تشبه الحقيقة . ولهذا تأثرت المدينة بتلك الشكاوى ونالت من نفوس الصحابة ، حتى إن بعضهم أخذوا يرتابون في ولادة عثمان لأنه لم يكن لديهم ما يدفعون به الباطل منها أو يميزون بين الحق وغيره ، فلم يكن أمامهم إلا أن يلجهوا إلى الخليفة طالبين منه أن يعالج الحالة ، فأخبرهم بناء على ما ورد إليه من تقارير الولاية أنهم لم يجانبوا الصواب ولم ينجحوا إلى الخطأ في أعمالهم وسياسة الولايات التي يقودون زمامها . ثم عقد لذلك مجلساً قرر أن يرسل بعض الرجال الموثوق بهم إلى البصرة والكوفة ودمشق ومصر حيث يطلعون على حالة الأقاليم ويعرفون مصدر تلك الظلمات وما هي عليه من حق وباطل . فاختار عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة وعمار بن ياسر .

أما عمار فقد توجه إلى مصر وكان حاكماً مبغضًا من المصريين لا يجدون حرجاً في رميته بكل تقىصة ، واستطاع أتباع ابن سبا بخدعهم ومهاراتهم في ذلك الجو المكفر أن يخدعواه بزخرف القول وزوره وكان مع هذا في نفس عمار شيء من عثمان لأنه نفذ فيه حكم الله لما تقاذف هو والعباس بن عتبة بن أبي لهب ، ولهذا لم يعد إلى الخليفة ، ولم يطلعه على شيء مما رأى ومال إلى أتباع ابن سبا .

وأما الوفود الثلاثة فقد أخبروا الخليفة أن هذه الظلمات كاذبة

وَدَحْضُوا مَا نَسِبَ إِلَى الْوَلَاةِ مِنْ مُجَاوِزَةِ الْحَقِّ وَظُلْمِ الْنَّاسِ وَاجْمَعُوا عَلَى
أَنَّهُمْ يَرْعَوْنَ الْوَلَايَةَ حَقَّ رِعَايَتِهِمْ .

١٠ - المؤمن بالمدينة

لَمْ يَكْتُفِ الْخَلِيفَةُ بِذَلِكَ بَلْ أَرْسَلَ إِلَى النَّاسِ فِي الْأَقْالِيمِ يَخْبِرُهُمْ أَنَّهُ
سَيَجْمَعُ الْوَلَاةَ بِالْمَدِينَةِ فِي مَوْسِمِ الْحَجَّ الْقَادِمِ ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ ظَلَامَةٌ
فَلَا يَرْفَعُهَا إِلَى الْخَلِيفَةِ حِينَئِذٍ ، وَذَلِكَ لِلرَّغْبَةِ مِنْهُ فِي الْقَضَاءِ عَلَى تَلْكَ
الظَّلَامَاتِ ، وَأَنْ يَقْسُطَ بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى تَنْقَشِعَ سُحْبُ تَلْكَ الْفَتْنَةِ ،
وَتَرْتَدِ سَيِّفُ الْكَائِدِينَ إِلَى نُحُورِهِمْ .

وَلَمَّا حَضَرَ الْوَلَاةَ وَلَمْ يَكُنْ قَدْ تَقْدَمَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ بِظَلَامَتِهِ
أَخْذَهُوا يَقْلِبُونَ وجوهَ الرَّأْيِ فِي مَعَالِجَةِ الْحَالِ وَأَدْلَى كُلَّ بِرَأْيِهِ ، فَرَأْيُ عَامِلِ
الْكُوفَةِ سَعِيدُ بْنِ الْعَاصِ التَّنْكِيلِ بِقَادَةِ الْفَتْنَةِ وَزُعمَاهَا . وَرَأْيُ عَامِلِ
الْبَصَرَةِ وَالْبَحْرَيْنِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ أَنْ يَشْغُلَ النَّاسَ بِالْغَزوِ ، وَرَأْيُ عَامِلِ
دِمْشَقِ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفِيَّانَ أَنْ يَقُومَ كُلُّ وَالْبَعْيَرَاهُ مِنْ ضَرُوبِ
الْقَضَاءِ عَلَى تَلْكَ الْفَتْنَةِ وَإِخْمَادِ جَذْوَتِهَا ، وَرَأْيُ عَامِلِ مَصْرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
أَبِي سَرْحٍ أَنْ يَفَاضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَالِ مَا يَطْقُنُ ، جَذْوَةَ الْحَقْدِ مِنْ نَفْوسِهِمْ
وَيَجْعَلُهُمْ يَلْتَفُونَ حَوْلَ الْخَلِيفَةِ . وَلَقَدْ أَعْرَضَ عُثْمَانَ عَنْ هَذِهِ الْآرَاءِ جَيْعَهَا
وَانْفَضَّ الْمُؤْمِنُ عَنْ غَيْرِ نَتْيَةٍ حَاسِمَةٍ ، وَهَذَا مَا حَمَلَ مَعَاوِيَةَ عَلَى أَنْ
يَوجَهَ نَظَرَ عُثْمَانَ إِلَى مَا قَدْ يَخْبِئُهُ الْغَيْبُ مِنْ شَرِّ شَامِلٍ وَخَطَرِ جَسِيمٍ ،
وَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُرْسَلَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِهِ جَنْدًا يَنْاصِرُونَهُ ، أَوْ أَنْ يَذْهَبُ

معه إلى دمشق وهناك من الأنصار والرجال من يحمونه ويصدون عنه كل عدوان . ولكن الخليفة أبي إلا أن يبقى بالمدينة ، وإن كان في ذلك حتفه .

١١ - اجتماع التمرد به عند المدينة

طلب الخليفة إلى الولاية الاجتماع به لبحث ماعسى أن يرفع إليه من ظلامات . فانتهز الشائزون تلك الفرصة واتفقوا على أن يشعروا نار الثورة بعد أن يغادر الولاية ولايائهم ، وتخلوا مقار الحكم ; ولكن الولاية رجعوا قبل أن يستقر الشائزون على خطة فأفاقت الفرصة من أيديهم وأخفقت محاولتهم الخروج فتواعد الزعماء والأشیاع بصر والبصرة والكوفة على أن يكونوا بالمدينة ، معللين سفرهم بأنهم داعون إلى الله والعمل بسنة نبيه ، وأنهم سيقفون الخليفة على ما نسب إليه وإلى ولاته من أمور أنكروها عليهم ، وهناك قابليهم الخليفة وتحدى إليهم فيما أخذ عليه مبيناً أنه لم يعد فيه سبيل الدين ، فرجعوا إلى أمصارهم بعد أن أخفقو في استهلاة أهل المدينة إليهم وضمهم إلى صفوفهم .

كان موقف أهل المدينة من عثمان إذ ذلك موقف دفاع ، وكثيراً ما حرضوه على أخذ هؤلاء الزعماء بالشدة وقتلهم ; ولكن عثمان أبي إلا أن يجادلهم بالتي هي أحسن وأن يعفو عنهم ، فربما كان ذلك أجدى في إسكان ريح الفتنة واستلال الأحقاد من نفوس الكائدين . لم يجد عثمان هذا ولما استيئسوا من مناصرة أهل المدينة

اتفقوا على أن يدخلوها على حين غفلة من أهلها ، وإذا ذلك يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون .

من هذا ينجلى أن التمرد قد بلغ درجة عظيمة من الخطورة ، فلو أن الأمر لم يكن يعود تقديم المظالم لم تنزع هذه الجماعات المغامرة من أمصار متنائية ، ولم تصل إلى المدينة كلها في وقت واحد على بعد الشقة بين هذه الأمصار الثلاثة : البصرة والكوفة ومصر .

وبدهى أن ذلك تم بتدمير سابق محكم ، وقد دلت الحوادث على أنهم كانوا إذا أخفقو في خطة لجئوا إلى غيرها في عزم وقوة ، ولهذا وفدوا إلى علي وعرضوا عليه ولاية أمر المسلمين رغبة منهم في أن يرحب بهم ويتعاونهم على عثمان ، ولكن علياً كان أ Nigel من أن يشجع هذا العمل الدنى ، نجيب ظنونهم وطردهم ؛ بل كان أول من أصلت سيفه للدفاع عن الخليفة . وكذلك باعوا بالخيبة عندما ذهبوا إلى طلحة والزبير يعرضون عليهمما الأمر ويستنصرونهما .

عند ذلك طلبوا من الخليفة استدعاء حاكم مصر وتعيين محمد بن أبي بكر خلفاً له ، وبذلك ينصرفون إلى أوطانهم ، فأجيبوا إلى ما طلبوا وغادروا المدينة مظهرين اكتفاءهم بذلك .

١٢ — دخول التمرد به المدينة

اطمأن أهل المدينة إلى انصرافهم فافترقوا ظناً منهم أن الأمر قد انتهى ؛ ولكن ما كان أشد دهشتهم عندما باغتهم هؤلاء الشائزون

مكثرين في أرجاءها محبطين بعثمان منادين : « من كف يده فهو آمن »
لـ شمل المدينة الفزع فأعرض الناس عن مناواة هؤلاء الأشرار
ولزموا مساكنهم ؛ ولكن علياً ذهب إليهم في جماعة من أصحابه
وسألهم عن سبب رجوعهم ، فقال المصريون جاءنا كتاب الخليفة إلى
والى مصر بأمره بقتلنا ويثبته في ولايته بعد أن وعدنا بعزله . وقال
من معهم من جماعات البصرة والكوفة : ونحن جئنا لمعونة إخواننا
وحمائهم . فقال على : وكيف علم أهل البصرة والكوفة مالقيه المصريون
والقوم على مراحل ؟ لابد أن يكون هذا الأمر قد أبرم بالمدينة قبل
مغادرتك إياها ، فقالوا : « صفوه كيف شئتم ، لا حاجة لنا في هذا
الرجل ، ليعتزلنا » .

وضنح موقف الشاريين عندئذ وانكشفت نياتهم ؛ فإن عودة
المصريين بسبب ذلك الكتاب يمكن أن تكون معقوله ، ولكن الذى
لا يقبله العقل رجوع جماعات البصرة والكوفة بعد أن اتجهوا إلى جهات
مختلفة وأوغلو في السير قاطعين مراحل شاسعة .

ويظهر أن العصاة لما وجدوا من أهل المدينة استعداداً للدفاع
عن خليفتهم وأخفقوا في استعمالهم إليهم ركبوا من الخديعة فأعلنوا
اطمئنانهم وارتياحهم لقول عثمان وغادروا المدينة على ألا يعودوا حتى
يستنضم أهل المدينة وينفضوا من حول الخليفة .

ولكنهم كانوا في الواقع مصممين على العودة متخلين سبيلاً آخر غير
الذى عرضوه أولاً : ذلك أنهم خلقوا مسألة الخطاب زوراً وبهتاناً ،
(٥)

فإنه لو كان الخطاب حقاً لأتي به إلى المدينة جماعة المصريين وحدهم ، ولكن ظهور البصريين والكوفيين معهم بعد أن افترقوا برا حل دليل حيلة مدبرة ومتافق عليها من جميعهم . على أن المصريين لو أرادوا إطلاع إخوانهم البصريين والكوفيين على الكتاب ما تنسى لهم أن يصلوا إليهم إلا عن طريق المدينة ، ولو فعلوا لوصلوا المدينة في الوقت الذي يكون الفريقان الآخران قد وصلوا فيه إلى مقاربهم وببلادهم . فن الحال إذاً أن يجتمع الوفود الثلاثة مرة ثانية بالمدينة إلا إذا كان هذا عن تدبير سابق واتفاق مبرم ؛ ولهذا يمكن أن يقال : إن زعماء الجماعات زوروا الخطاب واتفقوا أن يدخلوا المدينة جميعهم في وقت واحد ؛ أما أن الخطاب يحمل خاتم الخليفة فأمر ميسور لأن في الإمكان تقليده ، وهذا هو اعتذار عثمان حينما أطلع على الخطاب ، والقول بأن حامل الخطاب كان من خدم عثمان ، وأن مروان هو الذي كتبه دون أن يعلم الخليفة لا يقوم عليه دليل فهو مجرد ادعاء ، وقد طلب إليهم الخليفة البيينة على ذلك فما استطاعوا إليها سبيلاً ، وكان إحضار الخادم ليدللي بأقواله حتى يلقى على ذلك الخطاب نوراً يستبين الأمر على ضوئه أقل ما يجب عليهم ؛ إلا أن ذلك لم يكن ، ولما عجزوا عن البيينة أكد لهم الخليفة بالأيمان أنه ما كتب هذه الرسالة ولا علم له بها عملاً بالحديث الشريف « البيينة على من ادعى واليمين على من أنكر » .

كان هذا الحلف الذي صدر من خليفة المسلمين كافياً لتبرئته مما نسب إليه بعد أن عجز الثائرون عن إثباته بالبرهان القاطع ،

ولكنهم استبدوا وقالوا : سواء أكنت أنت الكتاب لهذه الرسالة
أم كان غيرك فأنت في الحالتين لا تصلح للحكم فاخلع نفسك وإلا قتلناك .
فقال عثمان : أما الموت فلا أخافه ولا أخشاه ، وأما الخلافة فلم أكن
لأخلع سر بالاً سر بلنيه الله .

وإذا كان الكتاب من عمل مروان أو غيره من بطانته — كما جاء
في بعض الروايات التاريخية — فهو تصرف من يلون الأمر بين يدي
عثمان للقضاء على الثورة بقادتها والتنكيل بهم من غير رأيٍ من
عثمان أو علم منه . والحق في أمر هذا الكتاب أن عثمان براء منه ، وأن
موقفه من الثائرين في مسألته موقف سليم لا يرقى إليه الشك .

١٣ — إبزاز الخليفة ومبسم في منزل

قوى أمر العصاة بالمدينة وقبضوا على ناصيتها ، غير أن الخليفة
وصحبه كانوا لا يزالون مختلفون إلى المسجد لإقامة الصلاة وتأديتها
في أوقاتها ، وفي يوم قام الخليفة في المسجد ليخطب الناس . فهرب
الثوار في وجهه ومنعوه الكلام واعتقلوا /أنصاره خشية أن يمزق ستار
جريتهم في خطابهم المزور فينكشف أمرهم وينفض الناس من حولهم
ويولوا الأدبار خائبين .

ولما جاء يوم الجمعة وحضر وقت الصلاة قام يخطب الناس حاضراً
العصاة على الخضوع والطاعة ومذكراً لهم بقول الرسول صلي الله عليه
وسلم : « إن الذين يعسكرون هنا — في تلك الأماكن — تنزل

عليهم لعنة الله ». وكانت جماعات من العصاة قد عسكرت في تلك الأماكن المعلومة التي عناها الرسول بقوله هذا . عند ذلك علا ضجيجهم وصخبهم داخل المسجد وأثاروا الشغب والاضطراب وأجلسوا من هب من كبار الصحابة لشد أزر الخليفة كزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة ، وجعلوا يرجون الخليفة وأنصاره بالحجارة حتى خرمغشياً عليه فنقل إلى داره حيث بقي محبوساً فيها لا يبرحها لاستهدا الحصار واستفحال أمر الثوار ، وقد وقف نفر من المسلمين بباب الدار ليصدوا عن الخليفة هجمات الثنرين ، من بينهم على وطحة والزبير ، وقد كان الحصار شديداً حتى إنهم منعوا عنه الماء ، وعيثاً حاول على أن يستميلهم بقوله : « يأيها الناس إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطم وتسقى وما تعرض لكم هذا الرجل فلم تستحلون حصره وقتله ؟ » وعيثاً حاولت أم حبيبة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم أن توصل إليه الماء ، ولقد تلقاها العصاة بالأذى وكادوا يقتلونها ، ولو لا أن الماء كان يأتي عثمان خلسة من دار آل حزم لمات عطشاً .

ولقد أطل عليهم عثمان إذ ذاك وتحدت إليهم بحديث يذيب ميت القلوب فما أبهوا لقوله وما أجابوا دعوته ، قال بعد أن سلم عليهم فا ردوا عليه السلام : أَنْشَدْكُمُ اللَّهُ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اشترىت بئر رومة من مالي فعملت رشائني منها كرشهاء رجل من المسلمين ؟ قالوا : نعم ، قال : فما يعني أن أشرب منها ؟ ثم قال : أَنْشَدْكُمُ اللَّهُ هَلْ عَلِمْتُ أَنِّي اشترىت

كذا وكذا من الأرض فزدته في المسجد؟ قيل نعم . قال : فهل عالم
أحداً من الناس مُنْعِن الصلاة قبلى ؟

١٤ — كراهة أهل المدينة لسفك الدماء

وقف أهل المدينة من العصاة الثائرين موقف صمت وسكون ،
أفكان هذا عن عجز منهم وقصور عنأخذ الثائرين بالشدة حتى يولوا
الأدبار ؟ أم كان ذلك لأنهم راضون غير ساخطين ؟ أم لأن العصبية
مزقت شملهم وجعلتهم فرقاً وأحزاباً كل يرى ما لا يراه الآخر ؟

لقد فعلت العصبية الجاهلية في أهل المدينة فعلها وخلقت فيهم من
ييلون إلى الإمام على من بني هاشم ، ومن يشايرون عثمان من بني أمية ،
ومن ينظرون إلى المهاجرين والأنصار نظرة المعتدى عليهم باحتجان
العمل في مناصب الدولة دونهم ، ففقدوا بذلك روح التعاون وتصدعت
جماعتهم ، وكان لذلك التصدع أثره في التزامهم الحياد ووقفهم أمام
عصاة صامتين ، وليس بعيد أن يكون لكل أولئك أثر في هذا
الموقف السياسي من أهل المدينة . على أن منهم من وقف بباب عثمان
مستقيماً في الذود عنه كأبناء طلحة والزبير وعلى والغباس ، ولكن عثمان
نهى عن استعمال الحسام ومقاتلة الثائرين ضناً بدماء المسلمين أن تراق
على بابه من أجله ، ولو أن الأمر لم يكن كما ذكر لاستطاعت المدينة
أن تقضى على الثائرين وتحول دون وقوع تلك الفجيعة التي اضطرب
لها جبل الإسلام ومزقت شمل المسلمين وفتحت عليهم باب شر شامل
وبلاء عظيم .

١٥ - الحج السنوي

قرب موسم الحج إلى مكة والحال كذا ذكرنا وعلى الرغم من حصار عثمان الشديد وحبسه في داره ، فقد كان شديد الحرث على القيام بشئون رعيته ، فجعل عبد الله بن عباس رئيس الحج وأمره أن يستحب الناس على أدائه ، كما أرسل إلى الناس في الحج شارحاً ما يحيط به من ضروب الشدة والحصار ظلماً وعدواناً ، وطلب إليهم وإلى الولاة أن يزأروا إصلاح الحال دون أن يريقوا قطرة واحدة من الدماء .

١٦ - قتل عثمان في ١٨ من ذي الحجة سنة ٣٥ هجرية ٧ بونية سنة ٦٥٦ م -

انهز الثائرون خلو المدينة من أهلها وخسروا إن توانوا وتملوا أن يعلم الناس بعثة ماحل بخليفتهم فيلبوا دعوه لمناصرته ويتحققوا مسرعين إلى نجده ودرء الشر عنه ، وحينئذ تحبط أعمالهم وقد دنا جناها ، وتطفاء حركتهم وقد وصلت أشدتها ، فاندفعوا إلى دار الخليفة حاولين اقتحام بابها للقضاء عليه ، فكان الحراس أشد بأساً مما يظنون فردوهم على أعقابهم . وبينما يحاول بعض الثائرين ولوح الباب ويقوم أنصار الخليفة بردتهم تسلل نفر منهم إلى منزل مجاور وتسوروه ، ومنه وصلوا إلى عثمان ، وكان وقتذاك جالساً جلسة وقار وهيبة تنبى عن السلام والبراءة يقرأ القرآن بين أسرته في مصحف على حجره .

كان لهذا المنظر الرهيب أثره في تفوس الثائرين فساورهم الإحجام

عن تلك التي اندفعوا إليها ، ولكن وسوسه الشيطان تغلبت على أمر هذا المنظر فبددت كل خشية من نفوسهم ، ولقد تقدم محمد بن أبي بكر وأمسك بالحية الخليفة ، فقال له : يا بن أخي لو كان أبوك حيًا لعرف كيف يعامل ذلك الشعر الذي تمسك به الآن . فاستحبأ ابن أبي بكر ورجع إلى الوراء ، وهنا هجم من معه من القساة وطعنوا الخليفة بسيوفهم وهو أعزل لا حول له ولا قوة ، وتقدمت زوجه للدفاع عنه وحمايته فقطعت أصابعها ، وقتل خادمه ، وانجلت المعركة عن موت عثمان مضرجًا بدمائه وكان عمره إذ ذاك ٨٢ سنة .

أخذ العصاة يعيشون في المنزل وهجموا على بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً لأن عثمان لم يكن يدخل مالاً ، بل كان ينفقه في المصالح العامة للمسامين .

وقع هذا الخبر على من بالمدينة وقوع الصاعقة ورأوا أن قد أخذت عليهم السبل وقضى الأمر ، فما انفكوا عن التزام السكون ، ودفن عثمان في اليوم الثالث من مقتله .

جهد الصحابة عامة وعلى رضى الله عنه خاصة في إخماد الفتنة

لعلمك تعجب كيف غلت مراجيل الفتنة واضطررت أحوال الدولة
في آخر خلافة صاحب جيش العسرة ، وقد كانت متماسكة البنية قوية
متقانة في الإخلاص له متغالية في حبه في النصف الأول من خلافته ،
فأحلاته في سويدة قلوبها وأسكنته حنابها أصلاعها : حقاً يعجب الإنسان
كيف أن أولئك الأمجاد الذين رفعوا لواء الإسلام وأصبحوا بنعمته
إخواناً عزوا عن إطفاء فتنة كادت تدك معالم الدين وتطوّح بجد
المسامين وتصوّح زهرة اتحادهم المتين ، وهم أولئك الذين فتحوا البلدان
ونشروا مجد الإسلام في كثير من الأقطار ، نخرجوها من جذورهم غازين
وفي سبيل الله متدينين ، فإذا بوا كل قوة وذلوا كل عقبة حتى أخضعوا
 أصحاب التيجان وأعزوا دين الله وشع ضوءهم في كثير من بقاع الأرض ،
فأحلوا الضياء محل الظلام ، ومكثوا دين الله بعد عبادة الأصنام .

ولكن هذا العجب يبطل إذا علمت أن القوم يحترمون الدين
ويخلون أحکامه وهو دين حرية ومساواة . دين جعل علیمًا رضى الله عنه
يغضب لتكلنيته حين وقف مع رجل من آحاد اليهود للمحاكمة ، وجعل
عمر مع شدته بعد أن راجعته امرأة في تحديد المهر يقول : « أصابت
امرأة وأخطأ عمر ». هذه الحرية التي جاء بها الدين جعلت عليه القوم

يتغاصرون عن عبد الله بن سباء وقد كان يهودياً وأسلم . فأخذ يطوف بالمحجاز والشام ومصر ينفر الناس من سيدنا عثمان ذي النورين ، فتوثبت النفوس للفتنـة بسبـب تلك الحرية التي قد سوها واحترموها أشد الاحترام . ولكن الولاة لم يقـرروا في وصف دوـاء لذلك الداء ، فقد قال ابن سعد أمـير مصر لـذلك الخليفة الطـيب القـلب : « أشـغلـهم بالـجـهـاد » وقال ابن عامـر أمـير البـصـرة : « أـصـلـحـهم بـالـمـالـ » وقال عمـرو بن العاص ، « اـعـتـزـمـ أـنـ تـعـتـدـلـ فـإـنـ أـيـدـتـ فـإـنـ أـعـتـزـمـ أـنـ تـعـتـزـلـ ، فـإـنـ أـيـدـتـ فـإـنـ أـعـتـزـمـ عـزـمـاـ وـأـمـشـ قـدـمـاـ » .

ولـكـنـ إـذـا حـمـ القـضـاءـ عـلـىـ اـمـرـىـءـ فـلـيـسـ لـهـ بـرـ يـقـيـهـ وـلـاـ بـحـرـ وـكـيـفـ يـلـامـ الـمـهـاجـرـونـ وـالـأـنـصـارـ وـقـدـ أـخـرـجـوـاـ آـخـرـ سـهـمـ فـيـ كـنـانـةـهـمـ فـطـلـبـوـاـ إـلـىـ خـلـيـفـتـهـ الـذـيـ يـجـلـوـنـهـ لـمـآـثـرـهـ السـابـقـةـ فـيـ الـإـسـلـامـ وـحـيـائـهـ الـذـىـ يـضـرـبـ بـهـ الـأـمـثـالـ — طـلـبـوـاـ إـلـيـهـ لـيـتـخـلـىـ عـنـ الـخـلـافـةـ . وـمـاـ كـانـ أـطـوـعـ هـذـاـ خـلـيـفـةـ الطـيـبـ القـلـبـ إـلـىـ إـجـاـبـةـ مـاـ طـلـبـوـاـ وـمـاـ رـجـوـاـ ! لـوـلـاـ أـنـ هـنـاكـ فـيـهـ لـاـ تـجـدـ آـمـالـهـاـ فـيـ تـخـلـيـهـ فـاسـتـمـرـأـتـ طـيـبـةـ قـلـبـهـ وـكـبـرـ سـنـهـ وـحـدـبـهـ عـلـيـهـ فـأـغـرـتـهـ بـالـتـمـسـكـ بـهـ ، فـلـمـ يـسـتـمـعـ لـنـصـحـ أـوـلـئـكـ النـاصـحـينـ الـراـجـينـ ، وـمـاـ طـلـبـوـاـ إـلـاـ مـجـدـ الـدـوـلـةـ وـإـخـمـادـ تـلـكـ الـفـتـنـةـ فـضـرـبـ عـمـارـ بـنـ يـاسـرـ حـاـمـلـ رسـالـتـهـ وـرـجـائـهـ مـنـ خـلـيـفـتـهـ السـهـلـ الـعـرـيـكـةـ الـلـيـنـ الـطـبـاعـ . وـلـوـلـاـ مـرـوـانـ بـنـ الـحـكـمـ كـاتـبـهـ وـمـسـتـشـارـهـ لـصـلـحـتـ الـحـالـ وـالتـأـمـ الـجـرحـ قـبـلـ الـاتـسـاعـ .

وـأـخـيـرـاـ لـقـدـ قـامـ كـبارـ الصـحـابـةـ بـعـالـمـ يـقـعـ مـعـهـ طـلـبـ لـمـسـتـرـيـدـ ، فـشـافـهـوـهـ فـيـ وـجـوبـ التـخـلـىـ عـنـ الـخـلـافـةـ وـنـاقـشـوـهـ وـجـادـلـوـهـ حـيـنـاـ عـامـوـاـ بـالـجـوابـ

الذى كتب إلى والي مصر « عبد الله بن أبي سرح » في شأن تعذيب وفدى مصر ، ولكن ذوى قرابته يريدون لهم مكانة كما كانتهم الأولى وزعامة كزعامتهم السابقة ، فرضوه على التمسك بالخلافة حتى قال : « لا أخلع قبيصاً ألبسنيه الله » وهو ذلك الخليفة الورع الزاهد صاحب اليد الطولى في الإسلام .

بهره على معاشرة :

أما جهد على فإنه يتبعين مما يليل : لما وجد أهل المدينة في خطة عثمان ما لا يحسن السكوت عليه اجتمعوا وحکمّوا على بن أبي طالب فدخل على عثمان فقال له :

الناس ورأى وقد كلامي فيك . والله ما أدرى ما أقول وما أعرف شيئاً تجهله ، ولا أدرك على أمر لا تعرفه ، إنك لتعلم ما نعلم . ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبليفكه ، وما خُصصنا بأمر دونك ، وقد رأيت وسمعت ، وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونلت صهره ، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك ، وإنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة ، ولقد نلت من صهره ما لم ينالا ولا سبقاك إلى شيء . فالله الله في نفسك فإنك والله ما تبصر من عمي ولا تعلم من جهل ، وإن الطريق لواضح بين ، وإن أعلام الدين لقائة . تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدي وهدى ، فأقام سنة

معلومة وأمات بدعة متروكة . فوالله إِن كُلَّاً لَبِينَ وَإِنَّ السَّنَنَ لِقَاءَتْهَا
أَعْلَامٌ ، وَإِنْ شَرَ النَّاسُ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضَلَّ بِهِ فَأَمَاتَ سَنَة
معلومة وأحياناً بدعة متروكة . وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِيمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ فَيُلْقَى
فِي جَهَنَّمَ فَيَدْوِرُ فِيهَا كَمَا تَدْوِرُ الرَّحْيٌ » إِلخ.^(١)
فقال عثمان رضي الله عنه :

قد وَالله عَلِمْتَ لِتَقُولَنَّ الذِّي قَلْتَ . أَمَا وَالله لَوْكَنْتَ مَكَانِي مَا عَنْتَفْتَكَ
وَلَا أَسَمْتَكَ وَلَا عَبَتَ عَلَيْكَ ، وَلَا جَئَتْ مُنْكَرًا أَنَّ وَصْلَتْ رَحْمًا وَسَدَّتْ
خَلَةً وَآوَيْتَ ضَائِعًا وَوَلَيْتَ شَبِيهًـَا بْنَ كَانَ عَمْرَيُوْلَـِي . أَنْشُدْكَ اللَّهُ يَا عَلَىِ
هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ الْمَغِيرَةَ بْنَ شَعْبَةَ لَيْسَ هَنَاكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَتَعْلَمُ أَنَّ عَمْرَ
وَلَاهَ ؟ قَالَ نَعَمْ . قَالَ : فَلَمْ تَلْوُمْنِي أَنَّ وَلَيْتَ ابْنَ عَامِرَ فِي رَحْمَهِ وَقَرَابَتِهِ ؟ قَالَ
عَلَىِ : سَأَخْبُرُكَ . إِنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَابِ كَانَ كُلُّ مَنْ وَلَىٰ فَإِنَّا يَطْأُّ عَلَىِ
صَمَاخَهِ إِنَّ بَلْغَهُ عَنْهُ حَرْفٌ جَلْبَهُ ثُمَّ بَلَغَ بِهِ أَقْصَى الْغَايَةِ وَأَنْتَ لَا تَفْعَلُ ،
ضَعَفتْ وَرَفَقتْ عَلَىِ أَقْرَبَائِكَ . قَالَ عَثَمَانَ : هُمْ أَقْرَبَاؤُكَ أَيْضًا . قَالَ عَلَىِ :
لَعْمَرِي إِنَّ رَحْمَهُمْ مِنِي لِقَرِيبَةِ ، وَلَكِنَّ الْفَضْلَ فِي غَيْرِهِمْ . قَالَ عَثَمَانَ :
هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ عَمْرَ وَلَيْ مَعَاوِيَةَ خَلَافَتْهُ كَلَّاهَا ؟ . فَقَدْ وَلَيْتَهُ ، فَقَالَ عَلَىِ :
أَنْشُدْكَ اللَّهُ هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ مَعَاوِيَةَ كَانَ أَخْوَفَ مِنْ عَمْرَ مِنْ « يَرْفَأْ » غَلامَ
عَمْرَ مِنْهُ ؟ قَالَ نَعَمْ . قَالَ عَلَىِ : فَإِنَّ مَعَاوِيَةَ يَقْتَطِعُ الْأُمُورَ دُونَكَ وَأَنْتَ
لَا تَعْلَمُهَا فَيَقُولُ لِلنَّاسِ : هَذَا أَمْرُ عَثَمَانَ فَيَبْلُغُكَ وَلَا تَغْيِيرٌ عَلَىِ مَعَاوِيَةَ .

ثم خرج علىٰ من عنده ، غير أن عثمان رضى الله عنه أصرَّ على خطته
بتأثير من حوله من الأمويين ولم يقدر العاقبة حق قدرها . واستقر عبد الله
ابن سبأ في مصر كاً تقدم بعد أن جاب العراق والشام ينفي سموه بين
من أعمام الحسد وأصلهم الهوى ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم ، ولم يأل
جهداً في إثارة الفتنة حتى استفحلا أمره ، ففرض الناس على الثورة
والانتقام على الخليفة ، وكاتب من في مصر من أتباعه من أفسد
بدعوته في الأمصار الأخرى ، فتواعدوا أن يخرجوا جميعاً في شوال
مظهرين الرغبة في الحجج ، وذهبوا فنزلوا قريباً من المدينة واختلفت
آهواهم فيمن يكون الخليفة بعد عثمان : قال الكوفيون إلى الزبير ،
والبصريون إلى طلحة ، والمصريون إلى علي ، وذهب من كل جماعة وفد
إلى من مالوا إليه . فلما دخل أهل مصر على علي وسلموا وعرضوا عليه
أمرهم صاح لهم وطردتهم وقال لهم : لقد علم الصالحون أنكم ملعونون
على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . وكذلك قال طلحة وأبي زيد فانصرف
ال القوم كاً تقدم . ولما علم عثمان رضى الله عنه بأمرهم جاء عليه في بيته
فقال له :

« يا بن عم .. إنك ليس لي متوك وإن قرابتى قربة ولى حق عظيم
عليك ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهو مصبحى ، وأنا أعلم أن لك
عند الناس قدرًا وأنهم يسمعون منك ، فإننا أحب أن تركب إليهم
فتردهم عنى فإني لا أحب أن يدخلوا علىٰ فإن ذلك جرأة منهم علىٰ وليسمع
 بذلك غيرهم . فقال عليٰ : علام أردتهم ؟ قال : على أن أصير إلى ما أشرت

بِهِ عَلَىٰ وَرَأْيِهِ لِي . فَقَالَ عَلَىٰ : إِنِّي كُنْتُ كَلْمَتَكَ مَرَةً بَعْدَ مَرَةٍ فَكُلْ
ذَلِكَ تَخْرُجٌ فَقَاتَلَكَ وَتَقُولُ ثُمَّ تَنْقُضُ مَا تَقُولُ ؛ وَذَلِكَ كَلْهُ فَعْلُ مَرْوَانَ
ابْنِ الْحَكْمَ وَسَعِيدَ بْنِ الْعَاصِ وَابْنِ عَامِرَ وَمَعَاوِيَةَ ، أَطْعَمْتُهُمْ وَعَصَيْتُنِي .
قَالَ عُثْمَانَ : فَإِنِّي أَعْصَيْتُهُمْ وَأَطْبَعْتُهُمْ ، فَأَمْرَ النَّاسَ فَرَكِبَ مَعَهُ الْمَاهَاجِرُونَ
وَالْأَنْصَارُ إِلَى أَهْلِ مَصْرُوكَلْمَهُمْ عَلَىٰ وَمُحَمَّدَ بْنَ مُسَلَّمَةَ فَانْصَرُفُوا مَظَهِرِينَ
الرجوعُ إِلَى دِيَارِهِمْ وَعَادُ عَلَىٰ بَعْدِ اِنْصَارِهِمْ إِلَى عُثْمَانَ فَقَالَ لَهُ :

تَكَلَّمُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ النَّاسُ مِنْكَ وَيَشْهُدُونَ عَلَيْهِ وَيَشْهُدُ اللَّهُ عَلَىٰ
مَا فِي قَلْبِكَ مِنَ النَّزُوعِ وَالْإِنْبَاهِ ؛ فَإِنَّ الْبَلَادَ قَدْ تَخَضَّتْ عَلَيْكَ فَلَا آمِنٌ
رَكِبًا آخَرَينَ يَقْدِمُونَ مِنَ الْكَوْفَةِ فَتَقُولُ : يَا عَلَىٰ أَرْكَبِ إِلَيْهِمْ وَلَا أَقْدِرُ
أَنْ أَرْكَبَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَسْمَعَ عَذْرًا ، وَيَقْدِمُ رَكِبًا آخَرَوْنَ مِنَ الْبَصَرَةِ
فَتَقُولُ : يَا عَلَىٰ أَرْكَبِ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ لَمْ أَفْعُلْ رَأْيَتِنِي قَدْ قَطَعْتَ رَحْمَكَ
وَاسْتَخَفَفْتَ بِحَقِّكَ ، نَخْرُجُ عُثْمَانَ نَخْطُبُ خُطْبَةَ نَزْعٍ فِيهَا وَأَعْطَى النَّاسَ
مِنْ نَفْسِهِ التَّوْبَةَ . قَامَ حَمْدُ اللَّهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدُ ، أَيْهَا النَّاسُ ؛ فَوَاللَّهِ مَا عَابَ مِنْكُمْ شَيْئًا أَجْهَلَهُ ،
وَمَا جَنِيتُ شَيْئًا إِلَّا وَأَنَا أَعْرِفُهُ ، وَلَكُنِي مَنَّتِنِي نَفْسِي ، وَكَذَّبَتِنِي ،
وَضَلَّ عَنِي رَشْدِي . وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :
« مَنْ زَلَ فَلِيَتِبْ ، وَمَنْ أَخْطَأً فَلِيَتِبْ ، وَلَا يَتَمَادِ فِي الْمَلَكَةِ » ، إِنَّ مَنْ
تَعَادَى فِي الْجُورِ كَانَ أَبْعَدَ مِنَ الطَّرِيقِ » فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ اتَّعَظَ . أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ
مِمَّا فَعَلْتُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فَثَلَى نَزْعٍ وَتَابَ . فَإِذَا نَزَلتَ فَلِيَأْتِنِي أَشْرَافُكَ
فَلْمَيُرُونِي رَأِيَهُمْ ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ رَدَّنِي الْحَقُّ عَبْدًا لَآسْتَنَّ بِسَنَةِ الْعَبْدِ ، وَلَأَذْلَنَّ

ذل العبد ، ولا كون كالمرقوق ، إن ملك صبر ، وإن عتق شكر ،
وما عن الله مذهب إلا إليه ، فلا يعجزن عنكم خياركم أن يدنوا إلى ،
لئن أبت يميني لتنا بعنى شمالي .

فرق الناس لعثمان وبكي من بكى وكاد هذا الكلام يؤتي ثاره ، لولا
أنه لما بلغ مروان بن الحكم ولم يكن حاضره لم يرقه ، وأنكره على عثمان
لأنه وجد فيه ضعفاً واستكانة لا تلائم في نظره منصب الخلافة في
هذا المقام ، واستأذن عثمان في أن يحدث الناس فأذن له بخرج مروان
فقال : « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب ؟ شاهت
الوجوه ... جئتم تريدون أن تنزعوا ملوكنا من أيدينا ، اخرجوا عنا ..
ارجعوا إلى منازلكم ، فإنما والله ما نحن بغلوبين على ما في أيدينا »
فتفرق الناس مغضبين ، وذهب جماعة منهم إلى على فأخبروه الخبر فإنه
مغضباً حتى دخل على عثمان فقال :

« أما رضيت من مروان ، ولا رضي منك إلا بتحرر فلك عن دينك
وعن عقلك ، مثل جمل الظعينة يقاد حيث يُسَار به ، والله ما مروان بذى
رأى في دينه ولا نفسه ، وأيم الله إني لأراه سيورتك ثم لا يصدرك ، وما أنا
بعائد بعد مقامى هذا لمعاتتك ، أذهبت شرفك وغُلبت على أمرك »
ثم خرج ودخلت على عثمان زوجه نائلة فأشارت عليه بأن يسترضي علياً
ويستنصره ولا يعتمد على مروان في رأى فليس له عند الناس قدر ولا محبة ،
فأرسل إلى على فأبى أن يأتي وقال للرسول : قد أعمته أني لست بعائد .
وروى أن عثمان ذهب إلى على بليل وحاول أن يسترضيه فامتنع على وذكر له

رجوعه عما استرضى به الناس إلى رأى مروان بن الحكم ، وشتم مروان
النام ببابه



تألب أَكثر أهل المدينة على عثمان وكتبوا إليه يدعونه إلى التوبة ،
ويطالبونه بما لهم عنده من حقوق ، ويتهدونه بالقتل ، فكتب إلى
الأقاليم يستنجد بالمسامين ، وكان فيما كتب لمعاوية

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ قَدْ كَفَرُوا
وَأَخْلَفُوا الطَّاعَةَ وَنَكَثُوا الْبَيْعَةَ فَابْعِثْ إِلَيْ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ مَقَاوِلَةِ أَهْلِ
الشَّامِ عَلَى كُلِّ صَعْبٍ وَذُلُولٍ » فَلَمَّا جَاءَ مَعاوِيَةَ الْكِتَابَ تَرَبَصَ بِهِ ،
وَكَرِهَ إِظْهَارَ مُخَالَفَةِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَى
عُثْمَانَ كِتَابَ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ يَسْتَنْفِرُهُمْ ، وَيُعْظِمُ حَقَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَصَعَدَ عُثْمَانَ
الْمِنْبَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ خَمْدَ اللَّهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، فَقَالَ رَجُلٌ : أَقْمِ كِتَابَ اللَّهِ ، فَقَالَ
عُثْمَانٌ : اجْلِسْ . فَشارَ النَّاسُ وَتَحَاصَبُوا حَتَّى سَقَطَ عُثْمَانُ مِنَ الْمِنْبَرِ ، وَهُمْ
إِلَى دَارِهِ مُغْشِيًّا عَلَيْهِ ، فَجَاءَهُ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَعُودُهُ وَحْولَهُ بَنُو أُمَّيَّةَ
فَقَالَ لَهُ : مَالِكٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ بَنُو أُمَّيَّةَ بَنْطَقَ وَاحِدًا : يَا عَلِيُّ .
أَهَلَّكَتْنَا وَصَنَعْتَ هَذَا الصَّنْعَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ بَلَغَتِ الْذِي
تَرِيدُ لِتُمْرِنَ عَلَيْكَ الدِّينَ . فَقَامَ عَلَى مَغْضِبًا



لَمْ يَلْبِسْ ثَوَارُ الْأَقْالِيمْ أَنْ عَادُوا بَعْدَ تَفْرِقِهِمْ وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ
غَفَلَةِ مِنْ أَهْلِهَا ، فَكَبَرُوا فِي نَوَاحِيهَا وَأَحاطُوا بَدَارَ عُثْمَانَ وَنَادُوا : مَنْ

كَفَ يَدُهُ فَهُوَ آمِنٌ ، فَلَزِمَ النَّاسَ بِيَوْمِهِمْ . ثُمَّ جَمَعَ عُثَمَانَ نَصْحَاءَهُ وَأَهْلَهُ
بِيَتِهِ وَاسْتَشَارَهُمْ ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِأَنَّ يَطْلُبَ إِلَى عَلِيٍّ رِدَهُمْ وَيَعْطِيهِمْ
مَا يَرْضِيهِمْ ، فَدَعَا عَلِيًّا بِجَاءَهُ فَقَالَ لَهُ :

« يَا أَبَا الْحَسْنَ ، إِنَّهُ قَدْ كَانَ مِنَ النَّاسِ مَا قَدْ رَأَيْتَ ، وَكَانَ مِنِّي
مَا قَدْ عَامَتْ ، وَلَسْتَ أَمْنَهُمْ عَلَى قُتْلِي ، فَارْدَدْهُمْ عَنِّي فَإِنَّهُمْ لَهُمُ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ أَنْ أُعْتَبَهُمْ مِنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُونَ ، وَأَنْ أُعْطِيهِمُ الْحَقَّ مِنْ نَفْسِي
وَمِنْ غَيْرِي وَإِنَّ كَانَ فِي ذَلِكَ سُفْكَ دَمِي » .

فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : النَّاسُ إِلَى عَدْلِكَ أَحْوَجُهُمْ إِلَى قُتْلِكَ ، وَإِنِّي
لأَرِي قَوْمًا لَا يَرْضُونَ إِلَّا بِالرِّضَا وَقَدْ كُنْتَ أَعْطَيْتَهُمْ فِي قَدْمَتِهِمُ الْأُولَى
عَهْدًا مِنَ اللَّهِ لَتَرْجِعَنَّ عَنِّي جَمِيعَ مَا نَقَمُوا ، فَرَدَدْتَهُمْ عَنِّكَ ، ثُمَّ لَمْ تَفْ
لْهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَا تَغْرِيَنِي هَذِهِ الْمَرَةُ مِنْ شَيْءٍ فَإِنِّي مُعْطِيهِمُ الْحَقَّ
عَلَيْكَ . قَالَ نَعَمْ . فَأَعْطَاهُمْ فَوَاللَّهِ لَا فِيَنَّ لَهُمْ ، نَخْرُجُ عَلَى إِلَى النَّاسِ فَقَالَ :
أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ إِنَّا طَلَبْتُمُ الْحَقَّ فَقَدْ أَعْطَيْتُمُوهُ . إِنَّ عُثَمَانَ قَدْ زَعَمَ
أَنَّهُ مُنْصَفَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ غَيْرِهِ ، وَرَاجَعَ عَنِّي جَمِيعَ مَا تَكْرَهُونَ ،
فَاقْبَلُوا مِنْهُ وَوَكَّلُوا عَلَيْهِ قَالَ النَّاسُ : قَدْ قَبَلْنَا ، فَاسْتَوْثِقْ مِنْهُ لَنَا فَإِنَا
وَاللَّهِ لَا نَرْضَى بِقَوْلِ دُونِ فَعْلٍ . فَقَالَ لَهُمْ عَلِيٌّ : ذَلِكَ لَكُمْ . وَدَخَلَ
عَلَى عُثَمَانَ فَقَالَ عُثَمَانَ :

اَضْرِبْ بِيَنِي وَيَنْهُمْ أَجَلًا يَكُونُ لِي فِيهِ مَهْلَةٌ ، فَإِنِّي لَا أَقْدِرُ عَلَى
رَدِّ مَا كَرِهُوا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، فَقَالَ عَلِيٌّ : مَا حَضَرَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلُ فِيهِ

وما غاب فأجله وصول أمرك ، قال عثمان : نعم ، ولكن أجلنى فيما بالمدينة ثلاثة أيام قال على : نعم . وخرج إلى الناس فأخبرهم بذلك ، وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً بذلك على أن يرد كل مظلمة ، ويعزل كل عامل كرهوه ، وكف المسامون عنه ؛ ولكن مرت الأيام الثلاثة ولم يفعل ما يرضيهم ، فاشتد الحصار بعثمان رضى الله عنه واستمر مدة اختلف الرواة في تقديرها ، وقد تامس الثوار فيها العدل لمناؤة عثمان ، وحالوا بينه وبين الناس ومنعوه كل شيء حتى الماء ، فأشرف على جيرانه من آل حزم ، فبعثت غلاماً إلى علي وطلحة والزبير وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم يخبرهم بمنع الماء ، ويسألهُمْ أن يرسلوا إليه ماء إن استطاعوا ، فكان أولهم إنجاداً له على بن أبي طالب وأم حبيبة . وقد جاء على في الغلس خدث الناس قال :

« يَا يَهَا النَّاسُ إِنَّ الَّذِي تَصْنَعُونَ لَا يُشْبِهُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَمْرَ الْكَافِرِينَ ، لَا تَقْطَعُوا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الْمَاءَ ، فَإِنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ لِتَأْسِرِ فَقْطَمْ وَتَسْقِي ، وَمَا تَعْرَضَ لَكُمْ هَذَا الرَّجُلُ ، فَبِمَ تَسْتَحْلُونَ حَصْرَهُ وَقَتْلَهُ » فَأَبَى الثوار إِلَاصْغَاءِ إِلَى كَلَامِ عَلَى فَرْجِعِ مَغْضَبَاهُ إِلَى آخِرِ مَا تَقْدَمَتِ الإِشَارَةِ إِلَيْهِ .

وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا تَحْرَجَ الْمَوْقَفُ تَوَجَّهَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ إِلَى عَلَى رضي الله عنه وهو بين القبر والمنبر فقال له :

« يَا أَبَا الْحَسْنَ قَمْ فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي ، جَئْتَ وَاللَّهُ بِخَيْرٍ مَا جَاءَ بِهِ أَحَدٌ

قط إلى أحد : تصل رحم ابن عمك ، وتأخذ بالفضل عليه ، وتحقّن دمه
ويرجع الأمر على ما تحب ، قد أعطى خليفتك من نفسه الرضا
فقال على : تقبل الله منك يا أبا إسحاق . والله ما زلت أذب عنه
حتى إنني لاستحيي . ولكن مروان ومعاوية وعبد الله بن عامر وسعيد
ابن العاص هم صنعوا به ما ترى ، فإذا نصحته وأمرته أن ينفعهم
استغشنى حتى جاء ما ترى

ما تقدم يتبيّن أن علياً رضي الله عنه لم يكن راضياً عن خطة عثمان ،
بل كان يأخذ عليه بعض ما يأخذ الناس ، وقد صرّح له بأنه يثق من
آل أمية عن لا يستحق أن يوثق به كمروان وغيره ، وأنه يعامل الولاية
باللين حتى إنهم ليبرمون الأمور دونه وينسبونها إليه ، ثم يبلغه ذلك
فلا يغير ما أبرموا

ولا نستطيع هنا أن نلوم علياً لغضبه وسخطه على تلك النعرة التي
ظهر بها بنو أمية حتى قبضوا على ناصية الأمور . وما لا شك فيه أن
علياً رضي الله عنه كان يرى أنه أحق بالخلافة من غيره لصلةه بالرسول
صلى الله عليه وسلم وسابقته وبلائه . وهذه الحوادث وما سبقها تدلنا على
أن هذا الرأي لم يعنـه من الدخول فيما دخل فيه المسلمين ، والإخلاص
لما أخلصوا له ، ومن معاونة الخلفاء جميعاً فيما اضطـلـوا به من أعباء الخلافة .
ثم لم يكن في زمن عثمان على عدم رضاه عن كل أعماله أقل إخلاصاً
ومعاونة منه في زمن الخليفتين . فلم يُقصِّرْ في نصحه ومصارحته بما يرى .

ولم يدخل وسعاً في محاولة إصلاح الحال ، وذرء ما يخشى وقوعه من نكبات تحل بال المسلمين ، حتى خذله عثمان فيما توسط فيه من صلح بينه وبين الناس ، فاستحيا على أن يتعرض بعد ما بينه وبينهم ، وبعث بابنيه ومواليه للذبّ عنه ، على حرج الموقف وخطورته ، وتعرض ابنيه فيه للهلاك .

وقد يقال : ألم يكن في وسع على أن يفعل فوق ما فعل فيتحول دون وقوع الكارثة ؟ والجواب : إنه كغيره من الصحابة ما كان يظن أن تبلغ الجرأة بالناس إلى الإقدام على قتل خليفتهم ، كما صرّح بذلك سعد ابن أبي وقاص في حدثه مع مروان يوم أن ظهرت نيات الشّاعرين ، وتفاقم الشر في نفوسهم من أن أكبر ما كان ينتظرون أن يرغموه بهديهم إياه على النزول عن الخلافة لغيره . على أن علياً ما كان يستطيع أن يفعل فوق ما فعل إلا إذا جرد نفسه من كل الملابسات والحقائق التي تحيط به ، أو جعل نفسه أدلة لبني أمية يوجهونها حيث أرادوا وينفذون بها من الأغراض ما شاءوا ، وهذا ما لا يستطيعه رجل كعلى بن أبي طالب ، بل إن مثله ليتمس له العذر إذا ثار غضباً لما يرى من تحول الحال من عدل مطلق في عهد الخليفتين ، وقوّة شكيمة في الخلفاء تقوم المعوج ، وتقف كلا عند حده ، إلى ولاية يستهان فيها بأمر الخليفة وتكون الحظوة فيها والتقدم لبني أمية ، وليسوا من السابقين ذوى البلاء ، وهو مقاييس الفضل في ذلك الزمان .

على أنا نشك في نجاح على لو تقدم في موقفه خطوة ، فقد كان

الناس مدفوعين إلى الثورة بعوامل أخرى من تدبير ابن سبأ وغيره . وقد رأينا كيف ردّهم على ، فما لبثوا أن عادوا ومعهم ذلك الكتاب الذي لم يلهم الله تعالى أحداً أن يتبيّن حقيقة أمره ، ويصل بالدليل إلى تعيين كاتبه ، وإن كانت الظواهر ترجح أنه مروان فتلاك نزعته ، وإنما يصل إلى خاتم عثمان وغلامه وجمله مثله .

ومن الإنصاف أن نقرّر أنه ما كان ينبغي لعثمان أن يصدق عن رأى على ويعده الناس على لسانه ثم لا يتحقق ذلك متأثراً بمن حوله من الأمويين وبخاصة مروان . وماذا يفعل على وقد طرح رأيه ونبذ نصيحة وقد حاول أن يزيل سخط الشارعين ، ويُبَصِّر عثمان بحرج الموقف ، ووخارمة العقبي ، ولكن لا رأى لمن لا يطاع .

لقد كان عثمان رضى الله عنه مخلصاً كل الإخلاص لدينه وأمته راغباً أشد الرغبة في حقن دماء المسلمين وإن ذهب فداء هذه الرغبة . ولكن هذا الإخلاص وتلك الرغبة لم يكونا كافيين لبلوغ الغاية في مثل تلك الحال ، بل كان من الواجب أن يدع هذا التردد الذي رأيناه ويعاجل الموقف بما يستحق من عناء وحكمة ، فيقطع أسباب الشكوى ويدرك كل ما يمكن أن يؤوله الناس تأويلاً سيئاً ، وما كان ينبغي - مثلاً - أن يعده الناس بسمع من على - بأن يجib مطالبهم بعد ثلاثة ، ثم يتنتج عن ذلك بتأثير مروان ، فيغضّب عليه ويصرّفه عنه . ولعل له من كبر سنّه وضعفه وإحاطة الأمويين به ما يغدر به .

التبعة إذاً واقعة على من أحاط به من الأمويين . فهم الذين جروا
إلى هذا الموقف جرأً ، ولم يخلصوا لدينهم وخليفهم ، فاستغلوا ضعفه
وكبر سنّه أسوأ استغلال ، وحالوا بينه وبين الاتفاف بعلى بسوء مشورتهم .
وقد رأينا كيف كانوا يفسدون كل ما يحاول على إصلاحه حرصاً على أن
يكون الأمر في أيديهم ، فقد أرضى عثمان الناس باشارة على . فإنك
عليه مروان ، أبي إلا أن يخرج إليهم فينقض ما قال عثمان ، ويؤذى
الناس ، ويُوغر صدورهم بحديث الملك الذي لهم .

ولو أنَّ مَنْ حول عثمان أقفعوه عند تفاقم الأمر بالرجوع إلى أصحاب
الشورى واستشارتهم والعمل برأيهم ولو بالتنازل عن الخلافة — لكان
له ولالمسلمين في ذلك مخرج مما ألم بهم ، ولكنهم كانوا كلاماً أعطى عثمان
رضي الله عنه من نفسه الرضا صدفوه عن قصده ووجهوه إلى ما يريدون .

* * *

وفي الحق أن الخلاف بين علي ومعاوية بدأ حين ظهرت طلائع
الفتنة بين المسلمين أيام عثمان رضي الله عنه ، وشكى الناس إليه عمالة
فاستقدمهم إليه ليتحدث إليهم ويستشيرهم في الأمر ، ثم لم يجئ بعده
هذه الاستشارة إلا إلى اللين ، وعدم الأخذ بالشدة ، شفقة ورحمة ،
وخوفاً من سوء العاقبة ، وكان الناس رأوا فيما وطد العزم عليه فتح باب
الشر ، فاستشرفوا آخرته وأحسوا دنو نهايته ، فتكلموا فيمن يخلفه ،
وتوقع بعضهم أن يكون الأمر من بعده لعلى أو الزبير أو طلحة ، كما
توسم آخرون أن يكون لمعاوية .

روى ابن جرير (ص ١٠٠ جزء ٥) عن رجل من بنى أسد قال :
« ما زال معاوية يطمع فيها بعد مقدمه على عثمان حين جمعهم فاجتمعوا
إليه بالموسم ، ثم ارتاحل خدا به الراجز :

قد علمت صوامر المطى وضمرات عوج القسى
أن الأمير بعده على وفي الزبير خلف رضى
وطلاحة الحامي لها ولى

قال كعب : كذبت ، صاحب الشهباء بعده ، يعني معاوية . فأخبر
معاوية ، فسأله عن الذى بلغه . قال : نعم ، أنت الأمير بعده ، ولكنها
والله لا تصل إلينك حتى تكذب بمحابي هذا ، فوقعت في نفس
معاوية » اه .

فاما عادوا من الموسم إلى المدينة ورَدَّ عثمان الأمراء إلى أعمالهم ،
ودع معاوية عثمان ليرجع إلى الشام ، وقال في حضرة على رضى الله عنه
كلامًا يشعر باهتمامه بالأمر وعناته بالوصية بعثمان ، فقال له على : وما لك
وذلك ، وما أدركك لأم لك . قال معاوية : دع أمى مكانها . ليس بشر
أمهاتكم (ابن جرير) .

قتل عثمان ، وانتهى الأمر من بعده إلى على رضى الله عنهم . فبعث
بعماله إلى الأمصار ، وما لعلى أن يتريث في هذا ، والثورة في إبانها .
وأول ما أخذ على عثمان مساوى عماله . فكان مبعوث الشام سهل بن
حنيف ، فسار إليها حتى إذا بلغ تبوك لقيته خيل الشام فرده ، وكان ذلك
إيداناً بامتناع معاوية من بيعة على . فبعث إليه كتاباً مع سبرة الجهننى

فأهمله معاوية ثلاثة أشهر ثم سرّحه وأرسل إلى على رسولًا بظومار
مختوم فلما فتحه على لم يجد فيه كتابة فسأل الرسول : ما وراءك ؟ فقال :
إنى تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود . قال : ممن ؟ . قال : من خيط
نفسك ، وتركستين ألف شيخ ي يكون تحت قيص عثمان وهو من صوب
لهم قد ألسوه منبر دمشق . (وكان النعمان بن بشير قد قدم على معاوية
ومعه قيص عثمان الذى قتل فيه مخضبًا بدمه وبه أصابع نائلة التي قطعت
حينها كانت تدافع عنه ، فناظر معاوية الأصابع بالقميص ووضعه على المنبر
ليراها الناس ، وكتب بالخبر إلى الأجناد ، فثار إلية الناس ي يكون
والقميص يوضع أمامهم كل يوم على المنبر) . فقال على : مني يطلبون
دم عثمان ؟ ألسنت متورأ لثرة عثمان ؟ اللهم إنى أبرا إليك من دم عثمان ^(١) .

* * *

ولو أن علياً رضي الله عنه كان طامعاً في الخلافة كما اتهمه الأمويون
لما كان موقفه منها أنه حين أقبل الناس إليه يهرعون بعد مقتل عثمان
رضي الله عنه قائلين له : « لا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك ». .
قال : لا تفعلوا ؛ فاني أكون لكم وزيراً خيراً من أن أكون أميراً .
فقالوا : لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك . قال : دعوني والتمسو
غيري فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت
عليه العقول . فناشدوه الله والدين ، فقال : اعلموا أنني إن أجبتكم ركبتك
بكم ما أعلم ، وإن تركتموني فإنما أنا كحدكم ، إلا أنني أسمكم وأطوعكم

من ولاتهم أمركم . فأبوا إلا البيعة . فقبل بعد لائى على أن تكون البيعة في المسجد ، والعدوا المسجد غدا ، وقد كان ، وتمت له البيعة .

هذه هي الواقع التي نستطيع أن نستنبط منها ما يتعارض به عقوف على من عثمان في هذه الفترة الصاخبة ، ومنها يتبيّن ما يأتي :

(١) لم يكن عثمان رضي الله عنه في حزم الخليفتين قبله ، ولم يكن في شدة عمر على عماله ، ودؤام مراقبته لهم ، بل كان هيناً ليناً مسالماً . ونشأ عن هذا اللين أن استهان بعض أمرائه بأوامره بل أهان رسالته . فقد ذكر ابن قيدية في الإمامة والسياسة : أن أهل مصر جاءوا يشكون ابن أبي سرح عاملهم ، فكتب إليه عثمان كتاباً يتهدده فيه ، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل نهى عثمان عما نهاه عنه ، وضرب من أتاهم من قبل عثمان من أهل مصر حتى قتلها . وانظر ماذا يكون أثر هذا في الناس ؟ هل ينتظرون بعد ذلك إقامة للعدل ومنعًا للفساد ويحترمون منصب الخلافة ؟

وقد ابتعد أبو بكر وعمر رضي الله عنهمما عن شبهة نفع الأقارب ، فلما عهد أبو بكر إلى عمر . أطل على الناس في مرضه فقال : « أترضون من استختلفت عليكم ؟ فاني ما استختلفت عليكم ذا قرابة »

ولما جعل عمر الخلافة في السنة قال : يشهدكم عبد الله بن عمر - كهيئة التعزية له - وليس له من الأمر شيء ، أما عثمان رضي الله عنه فقد عرف عنه حبه لأقاربها حتى وثق بين لا يستحق أن يوثق به منهم ، وأكثر من استخدامهم في شؤون الدولة . وقد يرجع هذا - فوق غريزته وطبعه

إلى كبر سنه ، وثقل أعباء الخلافة عليه . وأول من توجه نفس المرء إلى الاستعانة بهم عند الحاجة ، أقرب الناس اليه .

(٢) التف الأمويون حول عثمان بحكم صلة القرابة ، واستغلوا ضعفه ولينه ومنصبه في جر المغامم المادية والمعنوية ، وفي القبض على ناصية الأمور . ولعلم كانوا يرموون من وراء ذلك أن تتحمل الخلافة من بعده في أحدهم حتى لا تخرب من بينهم ، بل ذلك ما يفهم صريحاً من قول مروان للناس على باب عثمان : « جئتم تريدون أن تنزعوا ملوكنا من أيدينا ؟ اخرجوا عينا ». وهو ما حملهم أن يُلْصقوا بهمة قتل عثمان بعلى وطلحة والزبير من أصحاب الشورى ، ثم هو ما حققه لهم معاوية بعد ، وأصر على القتال حتى حصل عليه ، ثم انصرف عن المطالبة بدم عثمان كما كان يزعم .

تضحيات عثمان في سبيل الإسلام

قام الإسلام على التضحية والفداء، وثبتت أصوله وقامت أغصانه
فارعة على بذل النفس والنفيس في إعلاء كامنة الله، فتحمل المسلمون
الآلام وصدقت عزائمهم في تحشيم الأخطار، واستعدب الرسول وأصحابه
صنوف العذاب في أنفسهم وحرياتهم من أول الأمر، فما الوطن على
محبته، وما المال على نفاسته، وما الأهل على التعلق بهم، بأعز على المسلم
من أن يبذل نفسه في مطالب الإسلام.

وكانت المتابعة التي استقبل بها الرسول الكريم في مكة من قريش
ابتلاءً من الله له ولمن آمن معه حتى تستعد نفوس المسلمين لمواجهة
الأخطار وملقاء الأهوال، وكان من عجيب حكمة الله أن تحس نفوس
المسلمين امتعاضاً إذا لم تجده هولاً تصارعه وأن يكون الملائكة أحب
إليها من البقاء إذ هو شهادة عند الله تنتظر النفوس أن تسرع إليها،
وما عند الله خير وأبقى.

علم أصحاب رسول الله أن كل واحد منهم جندي من جنود
الإسلام، فباعوا أنفسهم بيع السماح فتضافت القوى على نصرة الإسلام
بالأنفس والأموال.

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه من الذين قال الله فيهم :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فنهم من قضى نحبه ،
ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

ولا عجب فهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس
ابن عبد مناف القرشى الأموي يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
في عبد مناف فهو من أشرف قبائل العرب ، وأمه أروى بنت كريز
من زوجته البيضاء بنت عبد المطلب عمّة رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

دعا أبو بكر رضى الله عنه إلى الإسلام أول ما أسلم فسارع إلى
المهدية غير راغب ولا راهب ، وهو الغنى بالله ، العزيز في قومه ، وأشرف
في قلبه نور الإيمان فأضاء نفسه مخلصة صافية ونقها من دنس الشرك
وظلام الكفر ، فما عرف عنه في الجاهلية عداء للدعوة المحمدية ولا تآمر
لصد تيارها ولا سخط على دعاتها ومحاتها ، ثم لم يترجح في إسلامه ، أو
يتרדد في إيمانه ، وما هو إلا أن دعا صديقه فاستجاب الدعوة .

وعثمان أحد العشرة الذين بشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة .
روى أبو موسى الأشعري قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
في حائط من حيطان المدينة جاء رجل فاستفتح فقال النبي صلى الله عليه
وسلم : افتح له وبشره بالجنة ، ففتحت له فإذا هو أبو بكر فبشرته بما قال
النبي صلى الله عليه وسلم خمد الله ، ثم جاء رجل فاستفتح فقال النبي
صلى الله عليه وسلم : افتح له وبشره بالجنة ، ففتحت له فإذا هو عمر فأخبرته
بما قال النبي صلى الله عليه وسلم خمد الله ، ثم استفتح رجل فقال : افتح

له وبشره بالجنة على بلوى تصيبيه ، فإذا عثمان فأخبرته بما قال رسول الله
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْدَاللَّهِ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُ الْمُسْتَعْنَى .

كان عثمان رضي الله عنه من أخلص المؤمنين إيماناً وأصفاهم عقيدة
وأعمقهم يقيناً وأتقاهم قليلاً وأشدتهم رأفة وألينهم جانبياً وأكثرهم على
المسلمين برأً وشفقة ، ولم تجد فرصة يكون للبر والإحسان فيها موضع إلا
كان أسبق المسلمين إليها ، ولم تنزل بالمسلمين شدة وعسر إلا كان عثمان
أول العاملين على تحقيق ويلات الشدة وإزالة العسر والتفریج عن
الكرب في أظهر صورة ، وأجل مواساة ، وأجل إخلاص ، لا يبتغى
بذلك من الناس حمدًا ولا يتربّع منهم خيراً ، ولكنه يطلب ما عند الله
ويرجو المثوبة منه وحده .

ولذلك كانت تصحياته بالغة مبلغها كبيراً في عموم جدواها وبالغ أثرها
وبعد غايتها وطيب نمراتها . تكشف للرسول الكريم أن عثمان يحمل
قليلًا ظاهراً ونفسًا سمححة وثابة للسبق في خدمة الإسلام ، وأعجب الرسول
بوقاره الباهر وإخلاصه الفياض ، وكان الله قد منّ على عثمان بالسعة في
الرزق والثروة الطائلة بفضلها معيناً يبذل منه ما شاء الإسلام .

إنه وقف ماله على ترفيه عيش المسلمين في السلم ، وجعله عدة
لتجهيز الجيوش والمؤن في الحرب ، فلا عجب أن يكون إسلامه نعمة
أفضّلها الله على المسلمين ، وأن يخصه رسول الله بزواج كريمه السيدة
رقية حتى إذا توفاها الله زوجه بكريمه الأخرى السيدة أم كلثوم
وحسبنا بهذا النسب تكريماً وتقديراً من الرسول لعثمان .

ولما اشتد إيلاء قريش للنبي وأصحابه في مكة وضاق بهم العيش
انقسموا فريقين يتحمل الهوان ابتغاء رضوان الله ، وفريق اختار
له النبي أن يهاجر إلى الحبشة ، وقد عاهموا من النجاشي عطفاً عليهم ، ومن
ذلك ما أخرجه ابن سعد عن محمد بن الحارث التيمي قال :

لما أسلم عثمان بن عفان أخذه عميه الحكم بن العاص فأوثقه رباطاً ،
وقال : ترحب عن ملة آبائك إلى دين محدث ! والله لا أدعك أبداً حتى
تدع ما أنت عليه . فقال عثمان : والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه ؛ فلما رأى
الحكم صلابتة في دينه تركه .

ثم اشتد اضطهاد قريش له فكان من السابقين إلى فراق الوطن
بالسيدة رقية ؛ فدعا لها النبي بقوله : (صح بهما الله . إن عثمان لأول من
هاجر بأهله بعد لوط) يشير إلى قوله تعالى (فَآمِنْ لَهُ لَوْطٌ وَقَالَ إِنِّي مَهَا جَرَّ
إِلَى رَبِّي) فقد جعله رسول الله بمنازل الأنبياء الذين شقوا في سبيل دينهم
حتى اضطرب لهم خصومهم إلى ترك ديارهم وأوطانهم وأموالهم .
ثم عاد من الحبشة وهاجر من مكة إلى المدينة مع المهاجرين فكان
في حروب الرسول سيفاً من سيفوف الإسلام .

وقد تبدو هذه الهجرة يسيرة الشأن قليلة الخطير . ولكن عثمان ،
وهو الغنى بماله العزيز في قبيلته وقومه الذي يستطيع أن يدرأ عن نفسه
بذلك ما عساه يناله من الكفار ، وما يتوجه إليه من أذاهم الذي أصاب
غيره — عثمان الذي يمكنه أن يقابل شرهم بشر مثله إن قصدوه بسوء ،
ويحال منهم أضعاف ما ينالون منه ، ترك وطنه وماليه وما إلى ذلك

وهاجر مع القلة التي هاجرت أول مرة ليكون قدوة للمؤمنين الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ولا رد كيد أعدائهم؛ إذ لا شك أن من يرى عثمان وهو في قومه من هو - يهاجر فراراً بدينه غير حافل بما يتركه، ولا من خلفه من قوم أشداء ينصرونه إذا ابتغى منهم النصرة، يهون عليه أن يحتذى حذوه ويرى فيه الأسوة ويجد منه الزميل والرفيق في الغربة والمشجع على ترك الأهل والوطن وتحمل آلام الاغتراب والصبر على ما يصيبه في ذلك من عناء وإرهاق . فليست هجرة عثمان بالتي تقاوم بهجرة غيره لأن أكثر من هاجر إلى الحبشة كانوا من قلة الجاه وضعف الشأن مالم يكن لهم به من دوحة عن الهجرة، لأنها الوسيلة الفدّة لنجاتهم ورد العداون عنهم والفرار من إعنات الكفار لهم .

أما هو فليس شأنه شأنهم كما أسلفنا، لهذا كانت هجرته مما قوى عزائم غيره على الاقتداء به وشجعهم على ألا يكتنوا المشركين منهم وأن ينجوا بدينهم وأنفسهم من كيد من لا يطيقون لهم دفعاً، ونکال من لا قبل لهم بالوقوف في وجههم ، إلى بلد يستطيعون فيه أن يحافظوا على عقيدتهم آمنين غير وجلين ولا خائفين . وفي وجود عثمان وأمثاله يذن لهم ما يهون عليهم مشاق الغربة ، ويخفف على نفوسهم ألم الوحشة لذا كان هجرة عثمان من أقوى الأسباب في تكين الإيان من قلوب ضعاف المسلمين وتثبيت اليقين في نفوسهم وتقوية العزيمة في غيرهم من يخشى من الكفار الفتنة ويرهب من المشركين الضرر والمحنة . ومن تصحيات عثمان أيضاً أنه اشتري بئر رومة بالمدينة وتصدق

بها على المسلمين ليستستقوا منها . وخبر ذلك أن هذه البئر كانت ليهودي وكان يبيع القربة منها بمدّ^(١) ولم تكن عيون المدينة وآبارها في عدوتها وغزارتها وموافقة مائتها لمهاجرين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابها : تبيعنها بعين في الجنة ؟ فقال : ليس لى ولا لعمالي غيرها . فقال النبي : من يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلامهم وله بها مشرب في الجنة ؟

فأتى عثمان اليهودي فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها فاشترى نصفها وجعله للمسلمين ثم اشترى النصف الآخر ، وقد بلغت جملة المائة عشرة ألف درهم وصارت كلها للمسلمين . فأى مكرمة هذه التي قدمها عثمان لإخوانه المسلمين . وأى صناعة جعلها عند ربه ، إذ أنقذهم من احتكار هذا اليهودي وتحكمه فيهم وتقديره الأجر الذي يرضاه من يريد الاستتسقاء منها ؟ وفي أى شيء هذا الاحتياط ؟ إنه في الماء الذي لا حياة إلا به والذى يبذل الناس فى سبيل الحصول عليه كل ما يملكون إنقاذاً لأرواحهم من جشع النهم وتحكم هذا المستبد . عشرون ألف درهم يخرج عنها عثمان لربه في غير جلبة ولا ضوضاء ولا إعلان ولا إذاعة ؛ ابتغاء المشوبة من الله وإشفاقاً على المسلمين وإنقاذاً لهم من تحكم عدوهم واحتقاره ؟ إن هذا هو السخاء والكرم والبر في أجل صوره والبذل خير المسلمين في أجمل معانيه وأكمل ألوانه ، إن ذلك عنوان الإيمان المكين واليقين الثابت والشفقة والرحمة والثقة فيما عند الله من

(١) مكيال معروف وهو يعادل رطلاً وثلثان .

جزيل الثواب وواسع الفضل ورفع الدرجات والتصديق الكامل لما
يقوله الرسول ويعد به عن الله جل شأنه .

من شأن أمثال هذا البر أن يرفله عن المسلمين بعض معيشتهم
ويخفف عنهم شيئاً من مشاق حياتهم ، وخاصة إذا علمنا أن أهل المدينة
من الأنصار قد أحسوا بعض الشدة من نزول إخوانهم المهاجرين عليهم
ومشاركتهم لهم في أقوالهم ومرافقهم فإذا جاء مثل عثمان وهو من
المهاجرين — واشتري تلك البئر وجعلها لجميع المسلمين وجدوا في ذلك
نوعاً جميلاً من المؤاساة ومساهمة في تفريح الشدة ومشاركة في انتقال
الحياة الجديدة كما وجد المهاجرون فيه إعانة لهم وتطييباً لقلوبهم .

ومن تضحياته العظيمة الشأن العميقية الآخر تجهيزه جيش العسرة
في غزوة تبوك : ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه أن الروم جمعت
الجيوش تزيد غزوته في بلاده ، وكان ذلك في زمن عسرة الناس وجدب
البلاد وشدة الحر حين طابت التمار والناس يحبون المكث في ثمارهم
وظلامهم . فأمر عليه السلام بالتجهيز ، وكان قلماً يخرج في غزوة إلا ورثى
بغيرها ليعمّي الأخبار على العدو ، إلا في هذه الغزوة فإنه أخبر بقصده
بعد الشقة وكثرة العدو ، فأخذ الناس أهبتهم لذلك ، وبعث إلى مكة
وقبائل الأعراب يستنفرهم ، وحث الموسرين على تجهيز المعاشرين فجهز
عثمان ثلاثة بعير بأقتابها وأحلامها وخمسين فرسماً وألى بألف دينار
في ثوبه فصبهها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه
وسلم : ما على عثمان ما عمل بعد اليوم ، غفر الله لك يا عثمان ما قدمت

وَمَا أَخْرَتْ وَمَا أَسْرَرْتْ وَمَا أَعْلَنْتْ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . اللَّهُمَّ
أَرْضَ عَمَانَ فَإِنِّي راضٌ عَنْهُ

وَجَاءَ النَّبِيُّ سَبْعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ يَطْلَبُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَحْمِلُهُمْ فَقَالَ : لَا أَجِدُ
مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ ، فَتَوَلَّوْا وَأَعْيَنُهُمْ تَفِيضًا مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَا يَجِدُوا مَا
يَنْفَقُونَ . فَجَهَزَ عَمَانَ ثَلَاثَةً مِنْهُمْ . وَهَذَا مِنْ غَيْرِ شَكٍ بَذَلَ كَبِيرًا وَمَعْوَنَةً
لَهَا أُثْرُهَا ، وَاسْتِجَابَةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ لَيْسَ وَرَاءَهَا زِيَادَةً لِمُسْتَزِيدٍ ، قَوْيَتْ بَهَا
شُوكَةَ الْمُسْلِمِينَ وَعَزَّ جَانِبَهُمْ وَعَظَمَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ شَأْنَهُمْ حَتَّى أَدْخَلُوا الرَّعْبَ
فِي قُلُوبِهِمْ وَبَثُوا الذُّعْرَ فِي نُفُوسِهِمْ .

وَهُنَاكَ تَضْحِيَةٌ عَظِيمَةٌ لِعَمَانَ كَانَ لَهَا أُثْرًا عَظِيمًا الشَّأنُ لِلإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ دَلَتْ عَلَى إِخْلَاصِهِ (إِنْ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى دَلِيلٍ) وَكَشَفَتْ عَنْ
مَبْلَغِ إِيمَانِهِ ، وَهِيَ قِبْوَلَهُ أَنْ يَكُونَ سَفِيرًا بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَكُفَّارَ قَرْيَشَ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ .

وَحَدِيثُ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي الْعَامِ
السَّادِسِ لِلْهِجَرَةِ قَاصِدًا مَكَّةَ مُغْتَمِرًا ، وَسَاقَ مَعَهُ الْمَهْدِيَّ فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ مِنَ
الصَّحَابَةِ لَيْسَ مَعَهُمْ مِنَ السَّلَاحِ إِلَّا السَّيُوفُ فِي أَغْمَادِهَا ، لَأَنَّهُ لَا يَبْغِي
حَرَبًا وَلَا قَتَالًا ، وَلَكِنَّ يَرِيدُ زِيَارَةَ الْبَيْتِ الَّذِي مَا كَانَ يُصَدَّ عَنْهُ أَحَدٌ فِي
جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ . فَلَمَّا عَلِمَ كُفَّارُ مَكَّةَ بِذَلِكَ تَشَوَّرُوا فِيمَا يَنْهَا وَتَبَادَلُوا
الرَّأْيَ فِيمَا يَصْنَعُونَ إِذَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي يَرِيدُهُ مُحَمَّدٌ بَهُمْ ، وَهُوَ دُخُولُهُ
مَكَّةَ فِي قَوْمِهِ عَلَيْهِمْ وَبِيَنْهُمْ حَرْبٌ وَقَتَالٌ ، وَلَمْ يَسْبُقْ لَهُ مَحَاوَلَةً ذَلِكَ
بَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنْهَا هُوَ وَمَنْ هَاجَرَ مِنْ قَبْلِهِ ، وَكَيْفَ يَتَنَعَّمُ ذَلِكَ وَلَا تَزَالُ

سيوفه وسيوفهم تقطر منها دماء القتلى في الغزوات من الفريقين . إنها منه محاولة جريئة وخدعة يريد أن يحتل بها مكة أو يتصل قومه بأهليهم فيها فيفسدوا عليهم أمرهم ويحبطوا تدابيرهم . إنه إن فعل ذلك وتمكن من دخول مكة وهم فيها فلن يُرفع لهم رأس ولا يُسمع لهم في عشرتهم قول وتكون عليهم سبة لا تجيئ وعار لا يزول شidine . وكيف يفكر محمد في ذلك وقد غمز عودهم في حروبهم معهم فما لانت قناتهم ولا ضعفوا أمامه ، ولا نكصوا على أعقابهم من حرّ قتاله ، وأجمعوا أمرهم على أن يمنعوه من دخول مكة مهما يبلغ الأمر بذاته . وجاءت الأنبياء النبي صلى الله عليه وسلم بما صمم عليه المشركون وأنهم قد تجهزوا لقتاله إن هو حاول تنفيذ ما عزم عليه حتى يحكم السيف بيدهم وبينهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكشف أيدي المسلمين وأن يكون بيته حرمآ آمناً على الدوام لا ينتهك بحرب ولا قتال ، فأرسلت قريش إلى النبي رسوله يسألونه عن سبب مجيئه ، فلما أخبرهم الرسول عن قصده ورأوا حال أصحابه منه وما ساقوا من الهدى رجموا إلى قومهم وأبلغوهم ما رأوا وأشاروا بتركه يؤدى عمرته ، فأنكرت قريش على الرسل ما أشاروا وازدادت حمياتهم وكبرياتهم وغرورهم إلا أن يمنعوا محمدًا وأصحابه مما جاءوا من أجله ، وأيقنوا أنها حيلة يحتالون بها الدخول مكة والتمكن منها ، وأنهم إن دخلوها فلن يخرجوا منها والويل لقريش بعد ذلك ، فاستشار النبي أصحابه فأشاروا بوجوب المضي فيما أتوا له . ثم رأى صلى الله عليه وسلم أن يرسل لقريش رسولاً يطمئنهم على حسن قصده وبرىء غرضه وأنه

وَقَوْمَهُ مَا جَاءُوا مُقاَتِلِينَ وَلَكِنْ مُعْتَمِرِينَ . فَعُرِضَ عَلَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ
أَنْ يَكُونَ رَسُولَهُ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَخَافُ قَرِيشًا عَلَى
نَفْسِي ، وَلَيْسَ بِكَمَّةٍ مِّنْ بَنِي عَدَىٰ بْنَ كَعْبٍ أَحَدٌ يَعْنِي ، وَقَدْ عَرَفْتُ
قَرِيشَ عَدَاوَتِي إِيَّاهَا وَغَلَاظَتِي عَلَيْهَا ، وَهِيَ فِي ثُورَةٍ شَدِيدَةٍ وَهِيَاجٌ لَا يَبْلُغُ
مَدَاهُ وَلَا تُعْرَفُ غَايَتُهُ وَمَنْتَهَاهُ ، وَإِنِّي إِنْ ذَهَبْتُ إِلَيْهَا لَنْ أَفْلُحُ فِي
مَهْمَتِي وَلَنْ أَبْلُغَ الْقَصْدَ فِي غَايَتِي ، وَلَكِنِي أَدْلَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ
أَعْزَّ بِهَا مِنِّي ، وَلَهُ عِنْدَ قَرِيشٍ يَدٌ وَمَنْزَلَةٌ يُسْتَطِيعُ بَلِينَ جَانِبَهُ وَسَهْوَلَةَ خَلْقِهِ
أَنْ يَكُونَ خَيْرٌ سَفِيرٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ وَهُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ ، فَدُعَاهُ الرَّسُولُ
وَأَمْرَهُ أَنْ يَكُونَ رَسُولَهُ إِلَى قَرِيشٍ يَبْلُغُهُمْ مَا جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ وَأَنْهُ إِنَّمَا أَنِّي
مَسَالِمًا مُعْتَمِرًا لَا يَعْنِي حَرَبًا وَلَا يَرِيدُ قَتْلًا ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ سَاقَ الْمَهْدِيَ
وَقَلْدَهُ وَلَيْسَ مَعَ رَجَالِهِ مِنْ مَعْدَاتِ الْحَرْبِ إِلَّا مَا لَا يَسْتَغْنُ عَنْهُ
لِلْحِرَاسَةِ وَدَرَءِ الشَّرِّ وَالْعُدُوانِ ، وَهُوَ لِذَلِكَ يَأْمُلُ أَنْ يُخْلُلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ
الْكَعْبَةِ الَّتِي لَا يَصْدُ عَنْهَا أَحَدٌ .

احْتَمَلَ عُثْمَانُ عَبْءَ الرِّسَالَةِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ قَرِيشًا يَغْلِيُ مَرْجُلُ حَقْدِهِمْ
عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ، وَأَنَّهُمْ يَتَحِينُونَ الْفَرَصَ وَيَبْغُونَ بِهِ الدَّوَائِرَ ، وَقَدْ أَرْسَلُوا
لَهُ الطَّلَائِعَ : مِنْهَا مِنْ يَتَفَقَّدُ أَحْوَالَهُ وَيَقْفَ عَلَى عَدْدِ رَجَالِهِ وَمِنْبَلَغِ
اسْتَعْدَادِهِمْ ، وَمِنْهَا مِنْ يَنْتَهِزُ الْغَرَةَ لِيَنْتَالُ مِنْ رَجَالِهِ مَا يَنْتَالُ قَتْلًا أَوْ أَسْرًا ،
وَلَكِنَّ مَاذَا يَصْنَعُ عُثْمَانُ؟ أَيْخَالِفُ أَمْرَ الرَّسُولِ وَيَعْتَذِرُ عَمَّا نَدَبَ إِلَيْهِ ،
وَهُوَ لَمْ يَعْتَدْ تَمْحُلُ الْأَعْذَارِ الْكَاذِبَةِ وَلَا الْجَبِينَ فِي أَىٰ مَوْقِفٍ فِيهِ لِلْإِسْلَامِ

قوة ونصر؟ أم يقبل تلك السفارة على ما فيها من خطر شديد وسوء
عاقبة على نفسه؟

لم يُطُل ترددك حتى قبل ما كلفه الرسول إياه وليفعل الله ما يريد .
قدم عثمان على قريش ودخل مكة في جوار أبا بن سعيد ، وانطلق
إلى أبي سفيان وأشراف قريش فبلغهم الرسالة فزادت عنادهم وعادوا في
كبريائهم وعز عليهم أن يدخل محمد وأصحابه مكة رغمًا عنهم وهو الأعز
الأقوياء ، وأقسموا لا يدخلها هو ولا أحد أصحابه عنوة وهو فيها ،
وليقاتُنَّهُمْ حتى يُفْنِوْهُمْ ، وقالوا العثمان : إن شئت أن تطوف
أنت بالبيت فطف ، أما محمد وأصحابه فلا سبيل لهم إلى ذلك . فقال لهم :
ما كنت لأفعل ذلك حتى يطوف رسول الله ، إنما جئنا لزيارة البيت
ولنعمتم حرمته ونؤدي فرض الله عنده وقد جئنا بالمهدي معنا فإذا نحرناه
رجعنا بسلام .

فأجابه قريش بما صممت عليه وأنها ستمنع محمدًا من دخول مكة
هذا العام عنوة ، وأن العرب لا تسمع أن محمدًا دخل عليهم مكة
أبدًا ، وطال الجدال والمناقشة وطال احتباس عثمان عن المسامين
وترامت الأخبار بأن قريشاً قتلته غدرًا وغيلة ، فقلق المسلمون
على عثمان أشد القلق وخشواؤه أن يكون قد ناله من قريش شر ، وأن
تكون قد غدرت به وقتله في هذا الشهر الحرام الذي ما كانت
تجهز فيه أديان العرب لعدوان يقتل عدوه في حرم مكة ، وتمثل أمامهم
الغدر في أبشع صوره برجل ذهب إليهم يحمل رسالة سلم ومواعدة ، فدعى

النبي أصحابه واستشارهم في الأمر فقر الرأى على ألا يبرحوا حتى ينجزوا
قريشاً وينتقموا منهم شر انتقام إن كان ما بلغهم صدقًا، ثم دعا أصحابه
وقد وقف تحت شجرة في وادى الحديبية فبایعوه جميعاً على ألا يفروا
حتى الموت . فلما انتهوا من بيعة ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال :
هذه بيعة عثمان ، كأنه حاضر معهم وسميت هذه البيعة بيعة الرضوان ، ولم
يطل بعد ذلك خفاء أمر عثمان إذ جاءت الأخبار بأنه لم يقتل وتأكّد
ذلك بعودته بنفسه إلى النبي فأبلغه ما قالت قريش ، وأنه لم يبق لديهم
شك في أنه وأصحابه جاءوا حاجين وأنهم ما كان لهم أن يعنوا أحداً من
العرب عن الحج أو العمرة في الأشهر الحرم ، ولكن لما كانت قد وقعت
بين طلائعهم التي يقودها خالد بن الوليد وبين رجال محمد مناورات
إذا هم تركوه بعد ذلك يدخل مكة تحدثت العرب بأنهم انهزوا أمامه
فتتسقط هيئتهم وتنزل بين الناس مكانتهم ، لذلك هم يصرون على موقفهم
من محمد هذا العام وليفكر هو وأصحابه في الأمر لعلهم يجدون له حلّاً
يوفق بين الغرضين ، وإلا كانت الحرب طوعاً أو كرهًا ، فمادمت
المفاوضات واتصل الرأى بين الفريقين إلى أن كانت معاهددة الصلح
يذن بها بهذه السفاراة المباركة التي قام بها عثمان خير قيام وكان أليق القوم
بها ، حقنت دماء المسلمين وتجنبوا حرثاً ما كانوا لها مستعدين ولا فيها
راغبين . ويمن طالع عثمان وحسن نقبيته عقد الصلح بين الطرفين
فأمن كل جانب الآخر وانصرف المسلمون إلى إصلاح شئونهم وتنمية
أمورهم ، وكان له ذلك الأثر البالغ الذي سماه الله بحق فتحاً مبيناً .

وفيما يلى مأثرة تدل على ما طبع عليه من لين الجانب ورقة القلب والرغبة في تسكين ثأرة النفوس ، والقضاء على أسباب الشر ولو فدى ذلك بماله .

لما قُتِلَ عمر بن الخطاب يد أبي لؤلؤة فیروز غلام المغيرة بن شعبة تواردت الأنباء بأنّ أبي لؤلؤة كان قبل الحادّة يوماً مجتمعًا بـرجل نصراني اسمه جُفينة جاء به سعد بن أبي وقاص من الأنبار ليعلم أبناء المسلمين بالمدية الكتابة ومعهما الهرمزان ، وبينما هم يتناجّون من بهم عبد الرحمن ابن أبي بكر ، فلما رأوه قاموا فسقط منهم خنجر له رأسان ونصابه في وسطه ، ثمّ تبيّن أنّ هذا الخنجر هو الذي قُتل به عمر (رضي الله عنه) .

فـلما سمع ذلك عبد الله بن عمر اعتقد أنّ أباه قـتل بتـدبير هؤلاء الثلاثة وأنّهم شركاء في دمه ، وله دليل مادـى هو الخنجر الذي وجد مطابقاً لـوصف عبد الرحمن بن أبي بـكر ، فـاشتمـل سيفـه وـقتل الـهرـمزـان وجـفـينة وـابـنةـ أبيـ لـؤـلـؤـةـ . فـلـماـ بـوـيـعـ عـمـانـ بـالـخـلـافـةـ جـىـءـ بـعـدـ اللهـ لـيـقـضـيـ فـيـ شـائـنـهـ بـحـكـمـ اللهـ . فـقـالـ لـأـصـحـابـهـ مـنـ الـمـهـاجـرـينـ وـالـأـنـصـارـ : أـشـيرـواـ عـلـىـ فـيـ هـذـاـ الـذـىـ فـتـقـ فـيـ إـسـلـامـ مـاـ فـتـقـ . فـقـالـ لـهـ عـلـىـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ - وـكـانـ شـدـيدـاـ فـيـ الـحـقـ - : أـرـىـ أـنـ تـقـتـلـهـ . وـقـالـ بـعـضـ الـمـهـاجـرـينـ : قـتـلـ عـمـرـ بـالـأـمـسـ وـيـقـتـلـ اـبـنـهـ الـيـوـمـ ! فـقـالـ عـمـرـ وـبـنـ الـعـاصـ : يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ إـنـ اللهـ قـدـ أـعـفـاكـ أـنـ يـكـونـ هـذـاـ الـحـدـثـ وـلـكـ عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ سـلـطـانـ ، إـنـاـ كـانـ هـذـاـ الـحـدـثـ وـلـاـ سـلـطـانـ لـكـ . فـقـالـ عـمـانـ : أـنـاـ وـلـيـهـمـ وـقـدـ جـعـلـتـهـ دـيـةـ وـاحـتـمـلـتـهـ فـمـاـ لـ . إـنـ الشـرـيـعـةـ إـسـلـامـيـةـ تـعـتـبـرـ عـبـدـ اللهـ بـنـ عـمـرـ

قاتلًا قتلاً عمداً ولا تعتبر قتله قصاصاً لأنَّه قتل غير القاتل ، ومن قتلام
لم يثبت عليهم ثبوتاً قاطعاً اشتراكهم في الجنائية ، ولا يكون القصاص
إلا بعد المحاكمة ، ولو ثبت اشتراكهم ما كان الحكم الشرعي يوجب
قتلام ، والشرع لا يأخذ في الحدود والقصاص بالقرآن . فكان عبد الله
مستحقاً للقصاص ولو كان عمر حياً وقد صنع ابنه ما صنع ما تردد في
القصاص منه ، ولكن عثمان (رضي الله عنه) رأى ما رأاه بعض الصحابة
من استفطاع قتله ولما يحفل دم أبيه ، وتشاءم أن يكون بهذه خلافته
إدخال المصائب المضاعف على آل الخطاب . نخروجاً من هذا المأزق
تحمل الدية في ماله ، ووقي المسلمين شرًّا كبيراً وجنبهم مصايبًا أليماً .
ونحن إذا نظرنا في الظروف التي احتفت بالحادث ، وما عرف من تاريخ
الهرمزان ومن قتل معه ، لا يخالج النفس شك في أنَّ لها مدخلًا في
تلك الجريمة النكراء .

نضجية عثمان في سبل وحدة الأسلام :

لم يكن عثمان بالرجل الضعيف الخائِر العزيزة الذي تطير نفسه شعاعاً
إذا ما ادهمت الخطوب وأحيط بصنوف الشدة ، كما فهم كثير من
المؤرخين استنباطاً من سياسة الذين التي قابل بها العصاة الثائرين ، فإن
الحوادث التي انتابته في خلافته تدل على شجاعته ورباطة جأشه :
فقد أخذ الثورة في بلاد الفرس وحمل راية الإسلام خفاقة في كل مكان ،
وطارد الروم واضطربوا إلى التقهر داخل بلادهم حيث هزمهم هناك ،

ورفرف علم الإسلام على شاطئ البحر الأسود مع ما كانت عليه دولة الروم من قوة وشدة بأس فهل هذه الأعمال أعمال رجل ضعيف النفس فاتر العزيمة خائر القلب ينكحش أمام الصعب وينزوى إذا أحدق به الأخطار ؟ الحق أنه من التجني على عثمان أن يُؤول موته شهيداً إلى جبن وضعف .

لم يكن هذا الإحجام عنأخذ التأثيرين بالشدة ليؤول بضعف النفس وخور العزيمة ، فهذا الذي ذكر من موافقه أمام الحادثات الجسم يدل على ما كانت تتطوى عليه نفس الخليفة من قوة وجسد عظيمين ؛ ولكن كراهيته أن تراق دماء المسلمين على يديه وقوته من التأثيرين ذلك الموقف السلبي الذي جر عليه تهمة الضعف واللين لقد لقى المغيرة عثمان وهو محصور فقال له : يا أمير المؤمنين إنك أمام العامة وقد نزل بهم ما ترى ، وإنى أعرض عليك خصالاً ثلاثة ، اختر إحداهم : إما أن نخرج فنقاتلهم فإن معك عدداً وقوة وأنت على الحق وهم على الباطل ، وإما أن نحرق لك باباً سوی الباب الذي هم عليه فنعقد على رواحلك فتلحق بك فلن يتم لهم لن يستحلوك وأنت بها ، وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية .
أبى عثمان أن ينزل على أحد هذه الآراء ، وقابل الصدمة بنفس وثابة وقلب قد مليء يقيناً واطمئناناً .

ولو أن عثمان كان من خور العزيمة كما يظن بعض المؤرخين الآن ، لاستمع لرأى المغيرة ونجا بحياته ، ولكنه كان حريصاً على أن يكون

نبراساً لجميع الأجيال التالية يضيء السبيل إلى العمل على توحيد صفوف المسلمين بأى ثمن ، ودرء كل ضرر يصيّبهم ولو كان في ذلك حتف النفس .

تأمل ما روى عن عبد الله بن عامر قال : كنت مع عثمان يوم الدار فقال : أعزّم على كل من رأى أن لي سمعاً وطاعة أن يكفي يده ويليق سلاحه ، فألقي القوم أسلحتهم . وكان له عبيد عشرون حملوا السلاح ليقاتلوا عنه يوم حصره ، فمنعهم وقال : من ألقى السلاح فهو حر لوجه الله تعالى ، فامتنعوا عن القتال وألقوا السلاح . وما كان عليه من حرج لو أنه أمر أنصاره بالدفاع عنه والتنكيل بالثوار ، وأن يستعمل حقه الإداري والسياسي ، لكنه عثمان الرفيق الرحيم .

وبحسب عثمان خرفاً ورفعه مكانة ما روى عن أبي سعيد الخدري قال : ارتقت النبي (صلى الله عليه وسلم) ليلة من أول الليل إلى أن طلع الفجر يدعو لعثمان بن عفان يقول : اللهم عثمان بن عفان ، رضيت عنه فارض عنه ، فما زال رافعاً يديه حتى طلع الفجر .

ومن آثار عثمان (رضي الله عنه) في إنجاح الدعوة الإسلامية جمه الناس على مصحف واحد : ذلك أنه لما تعددت القراءات واختلف فيها أهل الأمصار ، وتفرق القراء في البلاد التي افتتحها المسلمون ، صار كل فريق يزعم أنه أصوب قراءة وأصدق روایة من الآخر ، وخيف على المسلمين من التفرق ، وعلى كتاب الله من هذا الاختلاف . فرأى عثمان أن يجمع المسلمين على قرآن واحد ، وأرسل إلى أم المؤمنين

حصة أَن تُرْسَل إِلَيْهِ بِالصُّورَاتِ كَتَبَتْ فِي أَيَّامِ أَبِي بَكْرٍ لِيُنْسَخَ مِنْهَا.

وَخَطَبَ فِي النَّاسِ، وَعَزَمَ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا جَاءَ بِهِ،

فَكَانَ الرَّجُلُ يَحْيِي بِالْوَرْقَةِ وَالْأَدِيمِ فِيهِ الْقُرْآنَ حَتَّى جَمَعَ مِنْ ذَلِكَ كُثْرَةً،

ثُمَّ دَعَاهُمْ رِجَالًا فَنَاصَدُهُمْ : أَسْمَعْتَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

وَهُوَ أَمْلَاهُ عَلَيْكَ ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ . فَلَمَّا فَرَغَ عُثْمَانُ مِنْ ذَلِكَ قَالَ :

أَيْنَ أَكَتَبَ النَّاسَ ؟ فَقَالُوا : كَاتَبَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

زَيْدُ بْنُ ثَابَتْ . قَالَ : فَأَيْنَ النَّاسُ أَعْرَبُ ؟ قَالُوا سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ .

قَالَ : فَلَيُمْلِلَ سَعِيدَ وَلِيَكُتُبَ زَيْدٌ . وَسَاعَدَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّيْرِ

وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هَشَامَ، فَكَتَبَ زَيْدٌ خَمْسَةً مِنْ صَاحِفَتِهِ

عُثْمَانَ فِي الْأَمْصَارِ، وَأَوْجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْقِرَاءَةَ عَلَى حُسْبَاهَا ،

وَأَمْرَ بِإِحْرَاقِ مَا عَدَاهَا .

وَهَذَا الْعَمَلُ الْجَلِيلُ كَافٌ فِي تَرْجِيحِ فَضْلِ عُثْمَانَ، وَفِي الدَّلَالَةِ عَلَى

بَعْدِ نَظَرِهِ وَحْسِنِ حِيَاتِهِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُ قَضَى عَلَى تَلْكَ

التَّفْرِقَةِ الَّتِي لَوْ اسْتَمْرَتْ لَكَانَ لَهَا مِنَ الْأَثْرِ السَّيِّئِ وَالْعَاقِبَةِ الْوَخِيمَةِ

مَا اللَّهُ عَالَمُ بِهِ . ذَلِكَ إِلَى أَنَّهُ سَدَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ السَّبِيلَ ،

وَسَلَكَ بِالْمُسْلِمِينَ الْمَحِيَّةَ الْوَاضِعَةَ وَالصِّرَاطَ السَّوِيَّ، وَرَدَ عَنْهُمْ شَرًّا

وَبَيْلاً وَبَلَاءً مُسْتَطِيرًا . فَلَلَّهِ عُثْمَانُ وَلَلَّهِ مَا صَنَعَ .

شخصية عثمان

- (١) رحيم ، رفيق ، تقي ، ضعيف أحياناً - طيب القلب
- (٢) ثري - كريم
- (٣) ذو مكانة ممتازة عند الرسول والصحابة

رحيم . رفيق . ضعيف . ذلول . طيب القلب

ولي عثمان الخلافة في السبعين من عمره . سن العطف والرقه
والتردد ، فكانت شيخوخته باعثاً على ازدياد رقته .

على أنه لم يعرف في صباه ولا جاهليته بالخشونة والقسوة ، بل كان
رحماً حبيباً ، والرجمة والحياة نعمتان من أصل ، وليس أبلغ في تصوير
حياة عثمان من قول الرسول عليه السلام : « ألا أستحيي من رجل
أستحيي منه الملائكة » .

وقد تنوّعت مظاهر رقته في صور شتى كل منها يثير الإعجاب
بخلقه وبنبله ؛ على أن من الإنصاف أن تقرر أن الرجمة كانت أحياناً في
غير مواضعها فكانت ضعفاً .

حسن عشرته لزوجه

فقد كان عثمان عطوفاً على زوجه ، حسن العشرة ليته . وحسبنا
أنه مع سبقه إلى الإسلام ، وزعامته في المجاهدين . ومكانته عند الرسول
تخلّى عن غزوة بدر ليمرض زوجه رقية بنت الرسول عليه السلام ،
وأراد الرسول أن يخفف عن عثمان رزء التخلف عن أولى مواعي
المسلمين مع الكفار فأقسم له مع الفاتحين وعدده بدرية ، ثم أراد أن
يواسيه في رقية التي توفيت يوم النصر فزوجه شقيقتها أم كاثوم
أية شهادة بحسن العشرة في تكرار الزواج !

ولو أن عثمانَ ممْن يصهرون إلى العظاءِ لمارب يقضونها خسب
لا لِإسعادِ الزوجات ، أو لو أنه طلعة إلى حسن الأحداثة في الناس
وكسب الصيت ، أو لو أنه ممْن يهون عليهم حلائهم في الشدائـد —
لو أنه على شيء من ذلك لاستبق إلى بدر يسجل لنفسه مجدًا ونفراً ،
ويكسب غمامًا ونصرًا ، ويشاركُ الرسول في جهاده وغزوته الأولى .
لكنه لزم داره يعرض زوجته لعلها أن تبرأ فتسعده وتعينه على مشقات
الجهاد الطويل فيما بعد ، وإن حم القضاء فيها فقد أرضى قلبه ووفى
لها حتى في ساعات الحرج .

بغضه سفك الدم

ولقد كان يبغض سفك الدم ، وإن كان في حقنه خسارة له ،
وعدوان عليه . فإنـه أول تولـيـته كان عليه أن يـعـالـج قضـية خطـيرـة هـي
قتل عبد الله بن عمر المهرـزان وجـفـينـة وـبـنـتـ أـبـيـ لـؤـؤـةـ ، لأنـ الـهـرـزانـ
وـجـفـينـةـ وـأـبـاـ لـؤـؤـةـ اـشـتـرـكـواـ كـاـ عـلـمـ — فـ تـدـبـرـ المؤـامـرةـ لـاغـتيـالـ يـهـ
وـقـدـ سـبـقـتـ الإـشـارـةـ إـلـىـ ذـلـكـ .

على أن رقتـهـ كانت تـتـعـارـضـ أـحـيـاـنـاـ معـ صـالـحـ الـأـمـةـ وـالـسـيـاسـةـ
فـأـخـرـ بـهـ أـنـ تـسـمـىـ ضـعـفـاـ وـسـوـءـ تـقـدـيرـ ، فـإـنـ الفـتـنـةـ لـماـ اـشـتـدتـ فـيـ
الـأـمـصـارـ أـرـسـلـ يـسـتـقـدمـ عـمـالـهـ إـلـيـهـ ، فـلـمـاـ مـثـلـواـ أـمـامـهـ (ـمـعاـوـيـةـ عـنـ دـمـشـقـ
وـعـبـدـ اللهـ بـنـ أـبـيـ سـرـحـ عـنـ مـصـرـ ، وـسـعـيدـ بـنـ الـعـاصـ عنـ الـكـوـفـةـ ،

وعبد الله بن عامر عن البصرة والبحرين ، وعمرو بن العاص ، وكان بالمدينة) . قال لهم : « إن لكل امرئ وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقى ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إلى أن أعزل عمالى ، وإن أرجع من جميع ما يكرهون إلى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم » .

فقال عبد الله بن عامر : « يا أمير المؤمنين أرى أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك ، فلا يكون لهم أحد إلا نفسه » .

وقال سعيد بن العاص : « إن كنت تريد رأينا فاحسّم عنك الداء ، واقطع عنك الذي تخاف ، واعمل برأيي تصب ».
فقال عثمان : وما هو ؟

قال سعيد : « إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر ». .

فقال عثمان : « هذا هو الرأى لولا مافيه » .

وقال معاوية : « يا أمير المؤمنين رأى أن ترد عمالك إلى أعمالهم على أن يكفيك كل عامل ولايته ، وأنا ضامن لك الشام » .

وقال عبد الله بن أبي سرح : « يا أمير المؤمنين إن الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم » .

وكانت الحكمة كلها في رأى ابن عامر ، فإن المسلمين شغلوا في زمن أبي بكر وعمر بالجهاد ، واستراحوا في زمن عثمان ، فوجد الشيطان

في الرؤوس الفارغة مرتعًا له ، فقد كان عمر لا يدع للعرب فرصة تتمكنهم من الإخلاص للراحة ، والإيواء إلى ظل النعيم والرفاه والاستمتاع بالمال والفراغ ، بل زَجَ بهم في معرك الحياة ومعترك الحرب معاً ، فشغلاهم عن الرفاهة والفتنة ؛ بل شغلاهم عن نفوذهم ليأمنوا شر الأمم المجاورة ، ولينشروا دين الله ، ولذا لم ينجُم في زمانه فرقة ، ولم يتناد الناس إلى عصبية ولا نعرة .

وكانت حكمة وقسوة في رأى سعيد بن العاص ، لكنها قسوة على قلة لصلاح المجتمع كله ، لكن عثمان لم يأخذ بهذا ولا بذلك ، ثم كان عليه إذا أُنْ يأخذ برأى معاوية فيرد عماله إلى أعمالهم ويفوض لهم الأمر يستتصحرون بما يشاءون ، ولا يلقى سمعه إلى الشكایات المغرضة ، لكنه لم يفعل هذا أيضًا ، فقد بدأ بعزل سعيد بن العاص وإلى الكوفة .

على أنه فوق هذا كله لم يستعطف الناس بالمال كما أشار ابن أبي سرح ، ونحسب أن بيت المال لا يكفي لاستعطافهم ، ولو قد فعل ما كان ذلك إلا علاجاً مؤقتاً لا يحسم الداء ولا يخمد الفتنة .

ومن قبيل رقته أو ضعفه في مواضع لا يليق بها غير الحزم والصرامة وإن أراد أن يتوقى الفتنة جهده ، وأن يقطع على الشاغبين كل سبيل فعل نزغات الشياطين أن تخجل عن صدورهم ، ولعلهم أن يفيتوا إلى رشدتهم — أنه كان يذعن لرغبات المحكومين ضد حكامهم من غير أن يتفحص

ويتحقق ، فقد حدثوا أن سعيد بن العاص والى الكوفة خرج إلى المدينة بعد أن وزع عماله على أعمالهم في البلاد ، فانهزم رؤوس الفتنة الفرصة ، وأشاعوا أنه ذهب يطلب من الخليفة إنقاذه عطائهم ، ودعوه للذهاب إلى عثمان يستغفونه منه . وبينما هم في طريقهم التقوا بسعيد قادما إلى عمله ، فقالوا له : « لا نريد أن تدخل علينا واليًا » .

فقال لهم : « هل يخرج الألف لهم عقول إلى رجل واحد ؟ إنما يكفي أن ترسلا إلى رجلاً وإلى أمير المؤمنين رجلاً آخر . »

ثم رجع عنهم ، وقد قتلوا مولاهم ، وأخبر عثمان بالذى كان منهم ، فقال له : من يريدون ؟ قال : أبا موسى الأشعري ، فقال عثمان : « قد أثبتتنا أبا موسى عليهم ، والله لا يجعل لأحد عذرًا ، ولا ترك لهم حجة ولنصلبوا كما أمرنا حتى نبلغ ما يريدون » .

ومهما يكن من شيء فإن إجابة الثوار إلى طلبهم بدون تحقيق ولا تحيص ولا تحرر تفتح الباب على مصراعيه لذوى الأهواء ، وتضعف من هيبة الحكم فى نفوس الحكومين ، وتغلى على الحكم أن يتملقوا الرعية ويبحاروها فيما تحب وترکره ، وإن جاروا أحياناً على حدود الله ، وخالفوا قوانين الدولة . وكتابه إلى أهل الكوفة دليل على أن السلطان قد خرج من يده إلى أيدي الغوغاء والمفسدين ، فقد كتب إليهم بعد رد عامله وقتل مولاهم كما يدنا ، وبعد طلبهم أبا موسى الأشعري واليًا عليهم يقول :

« أما بعد فقد أمرت من اخترتكم وأعفيتكم من سعيد ، والله لا يُرِضُّكم عرضي . ولا يُبْدِلَنَّ لكم صبرى ، ولا تستصلحونكم بجهدى ، فلا تدعوا شيئاً أحبتتموه لا يعصى الله فيه إلا سأله وهو ، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استغفitem منه ، انزل فيه عند ما أحبتتم حتى لا يكون لكم على حجة »

وكتب بمثل هذا إلى الأمصار .

وهي نفحة جديدة في الضعف لم يسمع الناس بثلها من عمر ولا من أبي بكر ، وصلاح في أيدي الشاغبين والمفتونين يشهرونـهـ في وجوه الولاة الصالحين ، ألم يعدـهـ الخليفة أن يحب رجاءـهـ إلى كل شيء يحبونـهـ ولا معصية للـلهـ فيه وأن يغفـيـهمـ من كل شيء يكرهونـهـ مادامـ لاـ مخالفةـ للـلهـ فيهـ ؟

وإذاً فليطلبوا منه عزل من يشاءون ، وتولية من يشاءون ، وإذا حكم الشعب بهواه فسد وانحلت عراة لا يصلح الناس فوضى لاسرة لهم ولا سراة إذا جهـاـهمـ سادوا

ومن مظاهرـ اللـيـنـ فيـ عـمـانـ أـنـهـ كانـ قـرـيبـ الإـذـاعـانـ لـمشـيرـيهـ وـالـاقـيـادـ لهمـ إـذـاـ كـانـ مشـورـتهمـ لاـ تـرـيقـ دـمـاـ ؛ـ فـإـنـ رـءـوسـ الفتـنةـ لـماـ جاءـواـ المـدـيـنـةـ أـوـلـ مـرـةـ وـشـاعـ أـنـهـمـ يـرـيدـونـ عـزـلـ الـخـلـيـفـةـ أوـ قـتـلهـ ،ـ سـأـلـ عـمـانـ عـلـيـاـ

أَن يَأْخُذ بِنَاصِرِهِ وَأَن يَرِدُ الْقَوْمَ عَنْهُ لَأَنَّهُ لَا يُحِبُّ دُخُولَهُمْ عَلَيْهِ فَإِنْ فِي
ذَلِكَ جَرَأَةً عَلَى مَرْكَزِ الْخَلَافَةِ، وَوَعْدًا عَلَيْهِ أَنْ يَنْزِلَ عِنْدَ رَأْيِهِ وَأَنْ يَصِيرَ
إِلَى مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ، نَخْرُجُ عَلَى إِلَيْهِ الْقَوْمَ وَرَكِبُ مَعَهُ الْمَاهِجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ،
وَمَا زَالُوا بِالْقَوْمِ حَتَّى رَجَعُوا، ثُمَّ خَرَجَ عُثْمَانٌ إِلَى الْمَسْجِدِ نَخْطَبُ خُطْبَةَ
نَزْعِهَا، وَأَعْطَى النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ التَّوْبَةَ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَجَدَ
فِيهِ مَرْوَانٌ وَسَعِيدًا وَنَفْرًا مِنْ بَنِي أُمَّيَّةَ لَمْ يَكُونُوا سَمِعُوا الْخُطْبَةَ، فَقَالَ
مَرْوَانٌ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! أَتَكَلَّمُ أَمْ أَسْكُتُ ؟ فَقَالَتْ نَائِلَةُ زَوْجِ عُثْمَانَ
بْلَ أَسْكُتَ فَإِنَّهُمْ وَاللَّهُ قَاتِلُوهُ وَمَؤْتَوْهُ ، إِنَّهُ قَالَ مَقَالَةً لَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْزَعَ
عَنْهَا . فَقَالَ عُثْمَانٌ : تَكَلَّمْ . فَقَالَ مَرْوَانٌ : « بَأْ بِي أَنْتَ وَأَمِي لَوْدَدْتَ أَنْ
مَقَالَتِكَ هَذِهِ كَانَتْ وَأَنْتَ مُمْتَنِعٌ مُتَّبِعٌ فَكَنْتَ أَوَّلَ مَنْ رَضِيَ بِهَا وَأَعْانَ
عَلَيْهَا ، وَلَكِنَّكَ قَلَّتْ هَا بَعْدَ أَنْ ثَارَتِ الثُّورَةُ وَانْدَلَعَ الشَّرُّ ، وَاللَّهُ لَا إِقَامَةَ عَلَى
مُعْصِيَةِ تَسْتَغْفِرُ اللَّهُ مِنْهَا أَجْمَلُ مَنْ تَوَبَّ تَخْوُفُ عَلَيْهَا ، وَمَا كَانَ يَحْبُبُ
عَلَيْكَ أَنْ تَقْرَبَ بِالْخُطْبَةِ وَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَى الْبَابِ أَمْثَالُ الْجَبَالِ مِنَ النَّاسِ »
فَقَالَ عُثْمَانٌ : أَخْرُجْ إِلَيْهِمْ فَكَلَّمُهُمْ فَإِنِّي أَسْتَحِي أَنْ أَكُلَّهُمْ .

خَرَجَ مَرْوَانٌ إِلَى الْقَوْمِ فَكَلَّمُهُمْ كَلَامًا شَدِيدًا ، وَانْتَهَرُوا بِغَلَاظَةِ
وَعَنْفِ وَشَتْمِهِمْ ، فَأَغْضَبُوهُمْ وَأَغْضَبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَحْسَنَ عُثْمَانٌ بِنَخْطَبَتِهِ
فَذَهَبَ إِلَى عَلَى يَسْأَلُهُ أَنْ يُؤَازِرَهُ وَلَا يَخْذُلَهُ لِمَا لَهُ مِنْ حَقِّ الْقِرَابَةِ ، فَأَبَى
عَلَى وَذَكْرِهِ بِمَا كَانَ مِنْ عَصِيَانَهِ وَالْإِصْغَاءِ إِلَى مَشْوَرَةِ مَرْوَانَ وَغَيْرِهِ مِنْ
بَنِي أُمَّيَّةِ ، فَقَامَ عُثْمَانٌ مُنْكِرًا مَغْضِبًا .

والحق أن عثمان أحسن أولاً في اتباع مشورة على وتفنيد التهم التي زعمها الثوار، وهي طريقة جرى عليها عثمان وارتضاها في محاولة قمع الفتنة، ولكنه أخطأ في الانقياد لمروان والتأثير ببنقده وتفويض الأمر له حتى لقد أغضب الثوار وأغضب علياً.

ثم لنفرض أن تفنيد عثمان للتهم ورده عليها بعسمع من الثوار كان خطأً، أَفَيَرْفَعُ هذا الخطأ شتم مروان وإياهم وإغلاظه ومخانته؟؟؟

على أن له رأياً في رد الحكم بن أبي العاص وآلـه إلى المدينة – وقد نفاهـ الرسول إلى الطائف – لا مرد له إلا ما وسم به من انقياد لزعماـء بـني أمـية، فقد جاء عـثمان الرسـول صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ وـرـجـاهـ أـنـ يـرـدـهـ فـأـبـيـ، ثم كـلمـ أـبـاـ بـكـرـ فـخـلـافـتـهـ فـرـفـضـ، ثـمـ طـلـبـهـ مـنـ عـمـرـ فـحـكـمـهـ فـقـالـ لـهـ : يـخـرـجـهـ رـسـولـ اللهـ وـتـأـمـنـيـ أـنـ أـدـخـلـهـ ! ! إـيـاـكـ يـابـنـ عـفـانـ أـنـ تـعـاوـدـنـ فـيـهـ بـعـدـ الـيـوـمـ، فـلـمـ وـلـيـ عـثـمـانـ رـدـهـ وـأـهـلـهـ ، فـضـيـجـ كـبـارـ الصـحـابـةـ وـجـاءـواـ إـلـيـهـ يـعـتـبـونـ عـلـيـهـ ، فـذـكـرـ لـهـ قـرـابـتـهـ مـنـهـ وـأـنـهـ لـاـ يـسـتـطـعـ غـيرـ ذـلـكـ ، فـنـقـمـوـاـ مـنـهـ وـاسـتـكـرـوـاـ أـنـ يـرـدـ إـلـىـ المـدـيـنـةـ رـجـلـ طـرـدـهـ الرـسـوـلـ مـنـهـ ، وـلـعـنـهـ حـتـىـ صـارـ مـشـهـوـرـاـ بـأـنـهـ طـرـيـدـ الرـسـوـلـ اللهـ ، وـأـنـ يـكـرـمـهـ وـيـصـلـهـ بـعـالـ عـظـيمـ .

والحق أن رده للحكم وآلـه بعد أن رفضه الرسـولـ وـالـخـلـيفـةـ جـرـأـةـ في ضـعـفـ وـضـعـفـ في جـرـأـةـ ، جـرـأـةـ عـلـىـ الرـسـوـلـ وـخـلـيفـتـيـهـ ، وـضـعـفـ أـمـامـ القرـابـةـ وـحـقـوقـهـاـ ، لـكـنـ مـرـاعـةـ الـقـرـابـةـ الـتـيـ تـجـلـبـ سـخـطـ الـأـجـلـاءـ مـنـ

الصحابة وتخالف أمر الرسول إنما هي خروج من التوقي الذي
التزمه عثمان .

* * *

ومن صفات الرفيق اللائين التقوى ، لأنها خشية من الله وخوف من
عقابه ، وتطالع إلى ثوابه ، وهذه صفات توائم النفس الرقيقة والعاطفة
الحساسة ، وقد كان عثمان تقياً ورعاً ، يصوم الدهر ويحج بيت الله كل
عام ، وتعارف الناس تقواه ، وقدرها رسول الله . روى ابن حجر في
الإصابة أن رسول الله قال : « لكل نبي رفيق ورفيق في الجنة عثمان » .
وعن عائشة لما بلغها مقتله : « قتلوه وإنه لأوصيهم للرحم ، وأتقاهم للرب » .
ثم هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد السبعة الذين توفى رسول الله
وهو عنهم راض .

* * *

وبعد — أفكان لين عثمان صالحًا لحكمته وقذاته ؟ أُنجح لينه
مع الناس فأحمد الفتن كما أراد ؟ يحزننا أن يكون الجواب ما نعلم من
فوضى وثورات واجتراء على صرع الخليفة نفسه .

خياء عثمان ولينه ورقته - اقتضته أن يتسمح مع من يؤذيه ، وهذا
لا يصلح في السياسة إذ لا بد للراعي من مهابة ورهبة . وقصة عمر مع
سعد بن أبي وقاص مشهورة - كما سبقت الإشارة إليها - على مكانة
سعد وبلائه في القادسية .

على أن عهد عثمان عهد فتن ومؤامرات ودعوات سرية وجهورية ظاهرها الغيرة على الإسلام والمسلمين وباطنها النفاق وتقويض دعائم الإسلام . فلم يكن عهد من عهود المسلمين محتاجاً إلى الشدة أَكثُر من ذلك العهد . ولو أنه أهدر دماء زعماء الفتنة كما أشار عليه بعض عماله لأراح واستراح ، وإنهم ليستحقون الإهدار ، وإن له في رسول الله أسوة حسنة ؟ فحين كان يتهيأ لغزوة تبوك كان المنافقون يبغضون المسلمين فيها « وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرًا لو كانوا يفقهون » فلم ير النبي أن يتهاون معهم خيفة أن يستفحلا أمرهم ، ورأى أن يأخذهم بالحزم ، فقد بلغه أن ناساً منهم يجتمعون في بيت سويم اليهودي يثبطون الناس ويلقون في نفوسهم التخاذل والت الخاف عن القتال ، بعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر خرق عليهم بيت سويم ، ففر أحدهم من ظهر البيت فانكسرت رجله واقتصر المباكون النار فأفلتوا ، ولكنهم لم يعودوا ملائحا ، ثم كانوا مثلاً لغيرهم فلم يحرؤ أحد بعدهم على مثل فعلهم .

وبعد عودته من غزوة تبوك وجد أن المنافقين شر عظيم تخشى مغبةه وخطر جسمه يستشرى إذا لم تجتث جرثومته . ذلك أن جماعة بنوا مسجداً بذى أوان بينه وبين المدينة ساعة ، وإليه كان يأوى جماعة من المنافقين يحاولون أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه ، وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضراراً وكفراً ، وطلبت هذه الجماعة إلى النبي أن يفتح

المسجد بالصلوة فيه وكان طلبهم هذا قبل تبوك ، فاستمهلهم حتى يعود ،
فلما عاد وعرف أمر المسجد وحقيقة ما قصدوا إليه من إقامته أمر بحرقه ،
فضرب لذلك مثلاً ارتعدت له فرائص المنافقين خافوا وانزروا .

لو أن عثمان قسا على المنافقين وعلى المسلمين المغرضين لسلم وسلمت
الجماعة معه ، لكنه كان يعالج الفتنة بالهداية ، وشطط الناس في مطالبهم
بالإجابة ، وكان يعتدى عليه وعلى حقوقه فيرضى ، ويغضي العين على
القذى ، ثم كان يعالج داء بداء ، ذلك أنه ظن أقرباءه أكثر إخلاصاً له من
الناس فولهم آثرهم فزاد الناس نعمة عليه ونفوراً منه .

وقد وصف السيد أمير على عثمان بقوله « كان عثمان شيخاً كبيراً
ضعيف الإرادة ، ولذا لم يستطع الإضطلاع بأعباء الحكم مع نزاهته
وفضائله الكثيرة » .

ولقد كان لعثمان في عمر أسوة حسنة فقد أقبلت الدنيا على المسلمين
في عهده ، فانفسحت ممالكهم وانهال عليهم الثراء وتنعموا بعض
النعم ، وإن أخشوا شيئاً في ما كا لهم ولم يلمسهم واقتضوا في انفاقهم
على أنفسهم خوفاً من عمر وقوته عمر كما يتبيّن ذلك من صنعه مع
مع خالد بن الوليد لما أعطى الأشعث بن قيس عشرة آلاف ، فكان
ذلك سبباً لاعتقاله بفضل عمamateه وسؤاله عن الدرهم التي أجاز بها
الأشعث : « أمن إصابة أصابها أم من ماله؟ ... » وعزله عن عمله
لأن عمل خالد كان بين الخيانة والإسراف وكلاهما شر .

وكان قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج إلى أطراف الأرض إلا بإذن كا سبق فشكوه فدافعوا عن رأيه بأنه يخشى عليهم الفتنة ، وضعف عثمان ولينه وسهو لة مقادته هي التي سهلت لهؤلاء الانسياح والافتتان كا سبق .

ومن عجب أن عثمان كان قد تنبه إلى ذلك ، لكن لم يأخذ به ، فإنه كتب إلى العامة من المسلمين بالأمسار : « أما بعد فإنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع . فلا تلتفتكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : « تكامل النعم ، وبلغ أولادكم من السبيايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن » .

وعثمان في نظر التاريخ ملوم في حرمه على الخلافة بعد ما تحقق الثورة عليه ، وكان في وسعه أن يستقيل ويخلّي نفسه من أعباء الحكم ، ويترك الأمر شورى ، أو يعقد مؤتمراً من جلة المهاجرين والأنصار فاما أقروه في منصبه . وإما عزلوه ولو غيره ، لكنه استمسك بالخلافة ، وعجز عن الخروج من المأزق ، وفي الوقت نفسه عجز عن أحmd الفتنة .

ثري ، كريم ، متوف

كان عثمان ثرياً رأةً عظيماً ، حدث عن نفسه في خطبة يرد فيها على شائنيه من الثوار فقال : « وما لي من بعير غير راحلتين ، وما لي من ثاغية ولا راغية ، وإنى قد وليت وإنى أكثر العرب بعيراً وشاء فالي اليوم شاة ولا بعير غير بعيدين لحجى ، كذلك هو ؟ قالوا نعم » إلى أن قال : « وقالوا إنى أحب أهل بيتي وأعطيهم ، وأما اعطاؤهم فإنـى إنـى أعطيـهم من مـالـى ، ولا أستـحلـ أموـالـ المسلمين لنـفـسى ، ولا أحد من الناس ، وقد كنت أعطـى العـطـيةـ الكـبـيرـةـ الرـغـيـبةـ من صـلـبـ مـالـىـ أـزـمـانـ رسولـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ وأـبـيـ بـكـرـ وـعـمـرـ ، وـأـنـاـ يـوـمـئـذـ حـرـيـصـ شـحـيـحـ ، أـخـيـنـ أـتـيـتـ عـلـىـ أـسـنـانـ أـهـلـ بـيـتـيـ وـفـنـىـ عـمـرـىـ وـوـزـعـتـ الـذـىـ لـىـ فـىـ أـهـلـ قـالـ المـلـحـدـونـ مـاـ قـالـواـ ؟ـ » ويـظـهـرـ مـنـ دـفـاعـهـ عـنـ نـفـسـهـ فـىـ هـذـهـ الـخـطـبـةـ أـنـهـ أـعـطـىـ أـقـرـبـاءـ مـالـهـ ، وـلـعـلـ هـذـاـ هـوـ السـرـ فـىـ كـبـرـ التـرـكـةـ الـتـىـ يـحـصـونـهـ بـعـدـ وـفـاتـهـ ؛ لـأـنـهـ فـىـ الـحـقـيقـةـ أـحـصـواـ مـاـ كـانـ لـهـ وـتـنـازـلـ عـنـهـ لـأـقـارـبـهـ ، فـقـدـ ذـكـرـ الـمـسـعـودـيـ عـنـ عـبـدـ اللهـ اـبـنـ عـتـبـةـ أـنـ عـثـمـانـ يـوـمـ قـتـلـ كـانـ عـنـدـ خـازـنـهـ مـنـ الـمـالـ خـمـسـونـ وـمـائـةـ أـلـفـ دـيـنـارـ ، وـأـلـفـ أـلـفـ درـهـ (جـنـيـهـ ١١٥,٠٠٠) وـقـيـمةـ ضـيـاءـ بـوـادـىـ الـقـرـىـ وـحـنـينـ وـغـيـرـهـاـ (دـيـنـارـ ١٠٠,٠٠٠) (جـنـيـهـ ٥٠,٠٠٠) وـخـلـفـ خـيـلاـ كـثـيرـاـ وـإـبـلـاـ (١)



لَكُنْ كَثِيرُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا عَلَى ثَرَاءٍ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَصْنُعُوا
صَنْيَعَ عُثْمَانَ فِي جُودِهِ الَّذِي تَضَرَّبُ بِهِ الْأُمَّةُ

وَكَانَ فِي قَدْرَةِ عُثْمَانَ أَنْ يَقْتَرَعَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ضَنَا بِعَالَهُ وَرَغْبَةُ فِي
اِكْتِنَازِهِ، لَكِنَّا سَبَسَطْ بَعْدَ قَلِيلٍ أَنَّهُ كَانَ مُتَرْفًا وَمُتَلَافِيًّا. ثُمَّ كَانَ فِي طَاقَةِ
عُثْمَانَ أَنْ يَنْفَقْ مَا لَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَيَسْتَمْتَعْ بِمَا يَسْتَحْلِهِ مِنْ أَلوَانِ النِّعَمَةِ
غَيْرَ عَابِيٍّ بِحَالِ الْمُسْلِمِينَ وَحَاجَتِهِمْ، وَغَيْرِ مُصِيقٍ لِجُؤَارِ الْفَقَرَاءِ وَالْمَعْوَزَيْنِ
مِنْ إِخْرَانِهِ فِي الدِّينِ كَمَا هِيَ حَالُ أَغْنِيَاءِ الْعَالَمِ كَاهِيَّةُ الْيَوْمِ، لَكِنْ عُثْمَانَ
أَشْرَكَ الْمُسْلِمِينَ مَعَهُ فِي ثَرَائِهِ مَرَاتٌ عَدَّ، فِي كُلِّ مِنْهَا جَلَالٌ وَعَظَمَةٌ
وَعَبْرَةٌ. وَحَسْبُهُ أَنَّهُ جَهَزَ جَيْشَ الْعَسْرَةِ كَمَا تَقْدِيمُ (غَزْوَةِ تِبُوكَ) مِنْ
مَا لَهُ فَبِذَلِيلِ مَا لَمْ يَبِذِيلْ حَدَّ، إِذَا مَدَ ذَلِكَ الْجَيْشَ بِأَلْفِ بَعِيرٍ^(١) وَخَمْسِينَ
فَرَسَّاً، وَيَقُولُ إِنَّهُ لَمَّا جَاءَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَحْمِلُ إِلَيْهِ
الْمَالُ وَقَدْرُهُ أَلْفُ دِينَارٍ جَعَلَ الرَّسُولُ يَقْلِبُهَا وَهُوَ يَقُولُ: مَا ضَرَّ
عُثْمَانَ مَا صَنَعَ بَعْدَ الْيَوْمِ. وَأَلْفُ الْبَعِيرِ تَسَاوَى الْيَوْمُ ٢٥,٠٠٠ جُنْبِيَّةً
تَقْدِيرَ وَالْخَمْسُونَ فَرَسَّاً تَسَاوَى ٢,٠٠٠ جُنْبِيَّةً عَلَى أَنَّهُ قَدَمَ لِلرَّسُولِ ٥٠٠ جُنْبِيَّةً وَإِنَّهُ
لَسْخَاءُ مِنْ عُثْمَانَ مَا مَثَلَهُ سِخَاءٌ أَنْ يَنْفَقْ مَا لَهُ عَلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ
وَهِيَ قِيمَةُ ٢٧,٥٠٠ جُنْبِيَّةٍ كَبِيرٍ إِذَا قِدِيسْتَ إِلَى ثَرَوَتِهِ.

وَيُزِيدُهَا قِيمَةُ أَنَّ الْوَقْتَ كَانَ وَقْتَ عَسْرَةِ الْبَلَادِ فِي جَدْبٍ ،
وَلَذِكْرِ تِبَاطَأِ الْمُسَامِمِينَ فِي الْخَرْوَجِ، وَأَنَّ الْحَرَّ كَانَ شَدِيدًا وَالْمَهَارَ قَارِبَتْ

(١) وَفِي رَوَايَةِ ثَلَاثَةِ بَعِيرٍ .

النضج والناس يحبون المقام في عمارهم وظلامهم ، ويكرهون الشخصوص
إلى الروم بعد ما صلوا بنارهم في مؤته ، والمنافقون يكيدون للإسلام
وال المسلمين فيثبطون العزائم ، ويشيرون قالة السوء لكن رسول الله
صلى الله عليه وسلم لم يثنه شيء من ذلك فدعا المسلمين إلى الجهد
والموسرين إلى الإنفاق فصنع عثمان ما صنع ، وكان له فضل في جنى
ثارها ، فقد ثار فيها المسلمون لأنفسهم من الروم في غزوة مؤته ،
وسبقو إلى الروم الذين يستعدون لغزو حدود العرب الشمالية غزواً
ينسى الناس انسحاب العرب الماهر في مؤته ويطمس معالم الإسلام ،
وقد خشىهم جيش الروم بعد ما تصدى لهم في تبوك فانسحب
إلى الشام يتحصن في حصونها ، ولهذا أثره في ثقة العرب بقوتهم ،
وخشية الروم من صوتهم ، ثم إن صاحب أئمة وأهل الخبراء وأذرُّج
أعطوا النبيَّ الجزية ، وبعث النبيَّ خالداً بفريق من الجيش في العودة
إلى دُومة الجندي فأسر صاحبها واستولى عليها ، وبهذه الغزوة قتلت
كلة ربك في شبه الجزيرة كلها ، وأمن النبيُّ العدوَان عليها ، وتتابعت
بعدها وفود العرب على النبي يعلنون إسلامهم ، ويقدمون إخلاصهم ،
وكانت خاتمة الغزوات .

وإذا كان عثمان قد أسرهم هنا في رد العدوَان والأخذ بالثار وإرهاب
الخصوم ، وفسح الطريق للدعوة ، فإنه انفرد قبل ذلك بشراء بئر رومة
(كما تقدم) .

هنا بدل عن طوعية أملاً في ثواب الجنة ، وإنه لسيخاء من عثمان أن

يتبرع للمسامين بعشرين ألف درهم (٥٠٠ جنيه) وإنه لفضل من عثمان
أن يسر للمسامين ماءهم وحفظ حياتهم وأبقى لهم عزتهم واعتزازهم فلا
سلطان لليهودي عليهم ، ولا فضل منه إليهم ، ولقد أحس اليهودي
شدة حاجتهم إلى بئر فالاشتطرت في ثمنها اشتطاطاً ، لكن اشتطاطه كان
دون سخاء عثمان وحبه لخير المسلمين والإسلام .

على أن جزاءه عظيم ، فهو مشرب في الجنة ، فما أعزب وما أحلى
وما أجمل وما أبهى !!

ومن هذا القبيل أن رسول الله قال من يزيد في مسجدنا ؟ فاشترى
عثمان موضع خمس سوار فزاده في المسجد .

فهو يسع على المسلمين في حياتهم ويوضع عليهم في مواضع
صلواتهم .

وليس لقائل أن يذهب إلى أن سخاء عثمان من ذلك النوع الذي يشتري
به السمعة وحسن الأحذوبة ، ويدعم به الجاه ، فلم يكن الرجل جلاب
شهرة ، ولا كلفاً بسمعة ، ولم يكن له مطعم يريد أن يتحققه ، ولا مطعم
يصبوا إليه ، واطلاعاً أنفق على أقاربه وتبرع لقوفهم وضعيفهم ، ثم أين
احتلال الشهرة في تحمله ديات القتلى الذين قتلهم عبد الله بن عمر من
ماله الخاص كما قدمنا ؟

اللهم لا أرب له إلا حسم الشر وإن اقتضاه خسارة كبيرة في ماله .
وكان رضي الله عنه على غناه وسخائه يحب التنعم ، أفيستخوا على

المسامين سخاء ثم يضمن على نفسه وعلى بيته؟ لا. إن هذا هو الخرق في الرأى والشذوذ في الطبائع مع تصديقنا بصححة وقوفه من بعض الناس. لقد كان عثمان يحب الطعام الجيد، واللباس الفاخر، والمسكن الأنيق؟ فقد سكنت في داره التي بناها بالمدينة بالحجر والكاس، وجعل أبوابها من الساج والعرعر (السرور) واقتني الأموال والجنان والعيون بالمدينة وغيرها، وإذا حج ضرب له الفسطاط بعنى، وكان يأكل الطعام في أطيب أصنافه، فقد روى الطبرى عن عمرو بن أمية الضمرى قال: وإنى كنت أتعشى مع عثمان خزيرة (شبه عصيدة بلحوم) من طبخ من أجود ما رأيت فيها بطون الغنم، وأدمها اللبن والسمن. وعن عبد الله بن عامر قال: كنت أفترس مع عثمان في رمضان فكان يأتيانا بطعم هو ألين من طعام عمر، وقد رأيت على مائدة عثمان الدرهم الجيد (نوع من الدقيق) وصغار الصنادل كل إبلة، كما روى أن عثمان أول من نخل له الدقيق.

على أنهم رواوا أنه كان يشد أسنانه بالذهب. ورأينا أن لا جريمة في شيء من هذا، لأن عثمان يجحود على الناس وعلى نفسه بعاله، وهذه متع مباحة «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطبيات من الرزق...» ولكن أعداءه اتخذوها ذريعة للتأليب عليه، وراجحت دعواهم عند السُّدُّج والأغرار، ولو أنهم تفقهوا لوجدوا أن المظهر الحسن من واجبات الملوك والأمراء وإن كلفهم كثيراً، وكان الدليل أمامهم في حياة معاوية بالشام.

مكانته

كانت له رضى الله عنه عند الرسول وعند المسلمين مكانة عزيزة فهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين رشحهم للخلافة عمر رضى الله عنه ، فقد قال لأصحابه وأولى المكانة من قريش بعد الاعتماد عليه : « عليكم هؤلاء الرهط الذين قال فيهم رسول الله صلوات الله عليه إِنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ : عَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَعُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ ، وَالزَّبِيرَ بْنَ الْعَوَامِ ، وَطَلْحَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، فَلَمْ يَخْتَارُوا مِنْهُمْ رَجُلًا . . . »

على أن المفاوضة بين عبد الرحمن بن عوف وعلى كمال تقدم كشفت عن تقدير على لعمان . وهذا إذ ذاك في ميزان النجاح في الانتخاب متوازنان . رروا أن عبد الرحمن بن عوف فوّض أن يختار أفضل الستة الذين عليهم عمر ، فكان أول ما تكلفه من الأعمال أن راح يخلو بعلى فيقول له : أنت تقول إني أحق من حضر بالأمر لقربتك وسابقتك وحسن اثرك في الدين وأنت على حق في ذلك ، ولكن أرأيت لو صرّف هذا الأمر عنك فلم تحضر ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟ فقال على : عثمان .

ولعله من الإنصاف أن نقرر هنا أن عثمان كان نبيلاً للنفس كعلى لأنه اختاره للخلافة إذا تخطته ، فقد قال له عبد الرحمن بعد أن فاوض عليهما : تقول شيخ من بني عبد مناف ، وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى سابقة وفضل ، فلم يصرف هذا الأمر عن ؟ ولكن لوم تحضر

فأى هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ فقال عثمان : علىّ . فههنا رجل يشهد له م-naفسه ، ويشهـد لـ-naفسـه ؛ وإنـها لـعظـيمـة منـ عـلـى وـمـن عـثـان . وـشـهـادـة عـلـى عـثـان تـرجـحـ فيـ نـظـرـنـا روـاـيـة الطـبـرـى أـنـ عـلـيـاـ بـاـيـعـ عـثـان بـعـدـأـنـ تـخـطـتـهـ الخـلـافـةـ . ثـمـ إـنـ عـبـدـ الـرـحـمـنـ خـلـاـ بـالـبـيـرـ بـنـ الـعـوـامـ وـسـعـدـ بـنـ أـبـيـ وـقـاصـ فـعـلـ مـنـهـمـ أـنـهـمـ يـخـتـارـانـ عـثـانـ إـذـا تـخـطـاهـاـ الـاختـيـارـ ، وـرـوـيـ أـنـهـمـاـ اـخـتـارـاـ عـلـيـاـ بـعـدـ ذـلـكـ ، وـلـعـلـهـمـاـ تـحـقـقـاـ بـعـدـ تـفـكـيرـ وـبـحـثـ أـنـ الـإـمـامـ عـلـيـاـ سـيـكـونـ فـيـ سـيـرـتـهـ أـقـرـبـ إـلـىـ مـنهـاـجـ عـمـرـ مـنـ القـوـةـ وـالـشـدـةـ فـيـ الـحـقـ وـالـبـعـدـ عـنـ الـانـهـاسـ فـيـ الدـنـيـاـ وـالـاغـرـارـ بـزـيـتـهـ ، وـأـنـ عـثـانـ فـيـهـ رـقـةـ وـرـأـفـةـ . وـقـدـ أـخـذـتـ مـنـهـ الشـيـخـوـخـةـ مـأـخـذـهـ ، وـمـنـ كـذـلـكـ كـانـ أـقـرـبـ إـلـىـ استـكـفـاءـ غـيـرـهـ وـالـرـكـونـ إـلـىـ مشـورـةـ سـوـاهـ .

ودار ابن عوف لياليه يشاور المهاجرين والأنصار وأصحاب رسول الله ومن واق المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يحاورهم ولا يخلو بـرـجـلـ مـنـهـمـ إـلـاـ قـالـ عـثـانـ .

على أنه كان من كتاب الوحي لرسول الله وكان لأبي بكر وعمر أميناً وكاتباً .

يرسم الله عثمان لقد كان ينبوعاً ثراً للخير، ولكن رنق صفوه حسماً ده وأعداء الإسلام: وكان على حظ عظيم من النبلة والكمال ولكن السياسة منذ كانت لا تصلح إلا بالخteil والخداع والقسوة على المخالفين في الرأي، فهو ضحية لينه ورقته وطيب قلبه وضعفه أولاً . وضحية النظام الاجتماعي في عهده وتغير حال المسلمين، ومهارة أعدائه وأعداء الإسلام ثانياً .

فهرس

صفحة		صفحة	
٥٩	(٨) الفتنة تتحرك	٧	١٠) تمهيد
٦٠	(٩) التحقيق في الظلامات	١١	١١) الخلاف على عثمان . انتخابه
٦٢	(١٠) المؤمر بالمدينة	٢١	١٢) مقدّمات الثورة
٦٣	(١١) اجتماع المتمردين عند المدينة	٢١	١٣) بنو أمية وبنو هاشم
٦٤	(١٢) دخول المتمردين المدينة	٢٥	١٤) الحياة الاجتماعية في عهد عثمان
٦٧	(١٣) إيذاء الخليفة وحبسه في منزله	٣٢	١٥) الأمصار أو كار الفتنة
٦٨	(١٤) كراهية أهل المدينة لسفك الدماء	٣٩	١٦) تحديد أسباب الانتقاض على عثمان
٧٠	(١٥) الحج السنوي	٣٩	١٧) دعوة ابن سبأ واشتراكية أبي ذر
٧٠	(١٦) قتل عثمان	٤٥	١٨) المنافسة بين ذوى السبق وسائل العرب
٧٤	جهد الصحابة وعلى خاصة في إثبات الفتنة	٤٦	١٩) لين عثمان وتسامحه
٩٠	تضحيات عثمان في سبيل الاسلام	٤٨	٢٠) ركود حركة الغزو
١٠٨	شخصية عثمان : رحيم . رقيق ...	٥٠	٢١) حب عثمان لأقاربها
١٢٠	ثرى . كريم . متوف	٥٥	٢٢) انحراف أهل المدينة
١٢٥	مكانته	٥٦	٢٣) أمور أخرى نسبت إلى عثمان





